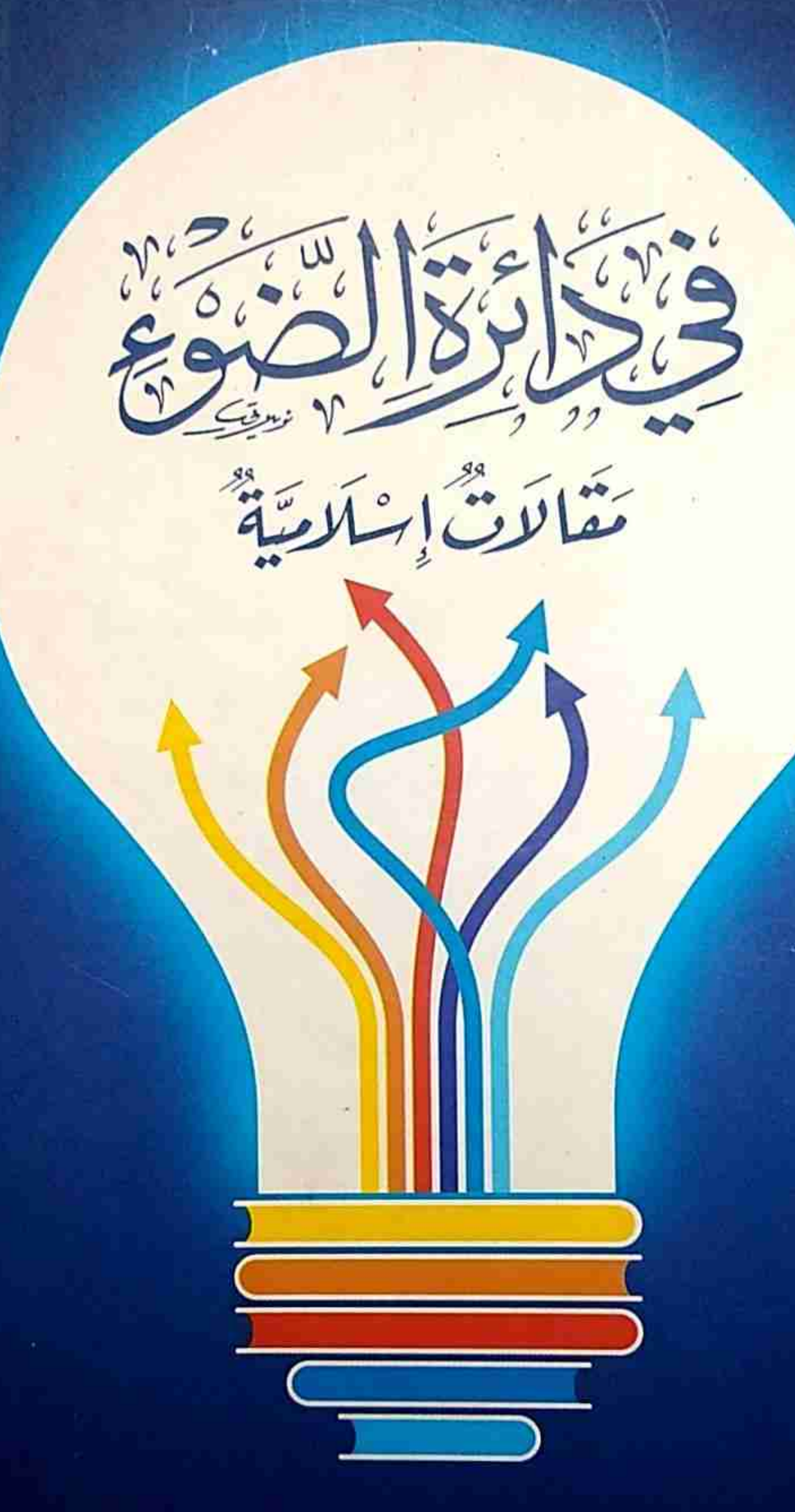
في دائرة الضوء

مقالات إسلامية



تأليف
أ. د. عماد الدين خليل

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مَقالاتٌ إسْلاميَّةٌ

تأليفُ

أ. د. عماد الدّين خليل

دار السّلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

خليل ، عماد الدين .
في دائرة الضوء (مقالات إسلامية) / تأليف عماد الدين خليل . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٣م .
٢٢٤ ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٤ ١١٤ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام - مقالات ومحاضرات .
أ - العنوان .
٢١٤

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *
* *
*

مُقَـدِّمَة

هذا هو الكتاب العاشر من كتب (المقالات) التي سبق وأن صدر منها المؤلفات التالية:

١ - آفاق قرآنية.

٢ - مؤشرات إسلامية في زمن السرعة.

٣ - في الرؤية الإسلامية.

٤ - مقالات إسلامية.

٥ - الرؤية الآن.

٦ - أولى ملاحم القرن.

٧ - مذكرات حول واقعة (١١) أيلول.

٨ - أمريكا مرة أخرى.

٩ - من النافذة الإسلامية.

ولا بأس أن أعيد هنا فقرات مما قدمت به الكتاب التاسع بسبب من الهمّ الواحد للكتابين. بل لكل كتب المقالات التي سبقتهما.

إنها المتابعة المتواصلة، المركزة والموجزة، لما يجري في حياتنا عبر مناحيها كافة، والإضاءة الضرورية للظواهر التي تتطلب من حملة الأقلام تقديمها للقراء في زمن

اختلطت فيه المفاهيم، وتداخل الأسود والأبيض، وعمّت فتن كسواد الليل، إذا أخرج أحد يده فيها لم يكد يراها.

والذين جرّبوا التعامل مع هذا الدين وفكره، يعرفون جيدًا كيف أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، مما يتشكل في مجرى الحياة، أو يتمخّض في ساحاتها، إلّا وللإسلام كلمة فيها. ويبقى على حملة الهّم الفكري أن يتحركوا بأقلامهم، يومًا بيوم وساعة بساعة، لرصد أكبر قدر ممكن من الظواهر والحالات، وتقديم رؤيتهم إزاءها على ضوء دين مدهش في امتداده وشموليته وقدرته على التعامل مع كل الظواهر والحالات.

إننا في زمن الاكتظاظ والاختزال والسرعة، وحصار المشاغل والهموم.. ومن أجل ذلك، قد يكون المقال الموجز في صفحتين أو ثلاث، فرصة مناسبة للقارئ لتمكينه من مواصلة القراءة، شرط أن ينطوي المقال الواحد على جملة من الأفكار، وأن يتجاوز الترهّل والإنشائية التي لا تكاد تقدّم شيئًا ذا بال.

وإلى اللَّه وحده نتوجه بالأعمال، ومنه وحده نستمد العون والتوفيق.

الموصل

أ.د. عِمَادُ ٱلدِّينِ خَلِيل

حديث عن منهج العمل

إن تجديد الواقع الإسلامي في كل زمن ومكان لا يتم بالتشبث برؤية تجزيئية تختار عاملًا ما، أو ظاهرة محددة، وتعلّق الأمل بالخلاص على معالجتها، وإنما باعتماد رؤية شمولية ذات توجه حضاري، ومنهج تكاملي، تسعى من خلاله إلى معاينة سائر المفردات التي يمكن بمعالجتها معًا الوصول إلى الجواب عن السؤال الملحّ..

فإعادة تشكيل العقل المسلم وحدها لا تكفي.. وحلّ المعضلة الاجتماعية لا يكفي.. وإيجاد صيغ سياسية مناسبة للعمل لا يكفي وحده.. كما أن الإعداد الروحي، أو الفاعلية التربوية، أو الممارسة الجهادية لا تكفي وحدها.. ولا يكفي نقد فكر الغير وتبيان أوجه ضعفه.. هذا إلى أن البحث في التاريخ لوضع اليد على نقاط الخلل في تكوين الأمة لا يكفي وحده.. لا بدّ من هذه جميعًا إذا أردنا أن نضع خطواتنا على الطريق الصحيح..

ومع هذا لا بدّ من الاستجابة بشكل حسّاس لمطالب اللحظة التاريخية التي قد تتغاير وتختلف بين الحين والحين، وبالتالي فإن حلًّا أو إصلاحًا يصلح لعصر أو بيئة ما، قد لا يكون بالضرورة ملائمًا لعصور أو بيئات أخرى.

إن الكثيرين منا يتذكرون الجهود المكافحة من عشرات المحاولات الإسلامية.. لم يكن يعوزها الإخلاص، ولا الإيمان بطبيعة الحال، ومع ذلك فإنها لم تتمكن من الوصول إلى أهدافها، بل الاقتراب منها.. إنها تصوّرت معطياتها المتشكلة من رؤية تجزيئية، هي البدء والمنتهى، فأدارت ظهرها للمحاولات الأخرى، وربما أعلنت الخصومة معها والحرب عليها.. دون أن تحاول فتح قنوات للحوار، وتبادل الخبرات، والإفادة من العناصر والحلقات الإيجابية الصالحة، فضلًا عن السعي الإستراتيجي المشترك للمحاولات جميعًا من أجل أن تصبّ في المشروع الحضاري الكبير، وتجيب على السؤال الذي لا يزال معلقًا: متى يصل الإسلاميون إلى أهدافهم التي حدّدها كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ؟ وكيف؟

إن تجاوز المواقف التجزيئية التي كانت وراء إخفاق العديد من المحاولات الإسلامية، هو الحلّ، وبدونه فإن مائة سنة أخرى من الدوران في الحلقة المفرغة لن يحقق المطلوب..

* * *
* *
*

حول جاهلية العرب

كثر الأخذ والردّ في وصف حالة العرب الحضارية قبل الإسلام، فبعضهم يسمي ذلك العصر (عصر الجاهلية)، وبعضهم الآخر يدفعه ردّ الفعل إلى إلغاء هذه الصفة عنهم، واعتبارهم أمة متحضرة في سياقات الحياة كافة.

وتجاوزًا للأفعال التي قد تكون خاطئة وقد تنطوي على تعميم غير مقبول، ولردود الأفعال التي تندفع في الاتجاه المضاد فتقع في مظنة الخطأ هي الأخرى.. يمكن أن نرجع إلى كتاب اللّه الذي يضع الأمور دائمًا في نصابها الحق، والذي يتجاوز - بعلم اللّه سبحانه - الرؤية الأحادية، ويدير المنظور على الحالة من أطرافها كافة، فيتحقق بالشمولية والموضوعية معًا.

فلطالما حدثنا القرآن الكريم عن التقدم العمراني المدهش للعرب قبل الإسلام، في هذه البيئة أو تلك من بيئاتهم المنتشرة في جزيرة العرب وعلى أطرافها، ويكفي أن نقرأ في سورة الشعراء هذه المقاطع: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[الشعراء: ١٢٨، ١٢٩] ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩].

ومع التقدم العمراني، حركة اقتصادية زراعية وتجارية بلغت شأوًا بعيدًا فيما يمكن أن نجد جانبًا منه في سورة الشعراء كذلك وفي غيرها من السور من مثل سورة قريش ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ١ - ٤].

ولكن هذا كله لم يمنع من اتهام العرب بالجاهلية، وذلك في واحدة من أكثر الحلقات الحضارية أهمية، بل هي أساس الفعل الحضاري وعامله الفاعل، تلك هي العقيدة، أو التصوّر الديني للخالق والكون والحياة، ولمغزى الوجود البشري في العالم، ومصائره ومقدراته؛ حيث كان العرب في الدرك الأسفل والجاهلية الجهلاء، وكانوا بأمسّ الحاجة إلى ثورة دينية انقلابية تنقذهم من الحفر الضيقة التي كانوا يتخبطون فيها، وتخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولقد كان مجيء الإسلام هو هذه الثورة الانقلابية التي صنعت المعجزة، وأخرجت العرب من جاهليتهم إلى التحضّر بمفهومه الشامل، ومن ظلمات الشرك إلى أفق التوحيد.

ها هنا أيضًا نجد القرآن الكريم يخصص مساحات واسعة لتقديم عرض وصفي لما كان العرب عليه في جاهليتهم

تلك، وينتشر الحديث عن الظاهرة في النصّ القرآني من بدئه حتى منتهاه.. ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

ويكفي أن نرجع إلى كتاب (الأصنام) لابن الكلبي لكي نرى بأم أعيننا عشرات الشواهد، بل مئاتها، على هذا الدرك الأسفل الذي كان العرب يتخبطون فيه.

إن القرآن الكريم وهو يتحدث عن الوضع العربي قبل الإسلام لا يقف عند حدود الجانب المدني من الحياة، بل هو يوسع المنظور باتجاه الجانب العقدي والفكري.. وفي ضوء ذلك سيتبيّن لكل ذي عينين كم كان العرب متخلفين رغم تقدمهم في الأنشطة الزراعية والتجارية وتفوقهم في قول الشعر وفنون العمران.

* * *
* *
*

في خطى المسيح عليه السلام

لدى قراءتي في كتاب الباحث اللبناني المسيحي (نصري سلهب): (لقاء المسيحية والإسلام) اطلعت على درر متألقة صدرت عن المسيح عليه السلام، وبخاصة في الفصل المعنون بـ (في خطى المسيح).. كنوز من الحكمة والرؤية النبوية الثاقبة، تبدو بالنسبة للمسلم بالذات أمرًا طبيعيًّا تمامًا، وهو ينظر باحترام وتقدير وتقديس وإعجاب إلى الأنبياء جميعًا - عليهم السلام - ويرى في كلماتهم المتوهجة نبض الخطاب الإلهي للإنسان.. الخطاب الذي يخرجه من الطرق المعوجة إلى الصراط، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده.. الخطاب الذي يريد أن يضع الإنسان والبشرية في دائرة الأمن والاطمئنان والتوحد والسعادة واليقين.. الخطاب الذي يرفع الشعار الواحد الذي حرّر الإنسان من سائر صيغ الصنمية والشرك والوثنية والطاغوتية والاستلاب.

معطيات الأنبياء - عليهم السلام - في منظور المسلم تستمد من منبع واحد، وتؤول إلى الهدف الواحد : شهادة أن لا إله إلَّا اللَّه، واعتماد منهجه أو كلماته لإعادة صياغة

العالم بما يليق بالإنسان.

لم يخطر على بال المسلم يومًا أن يفرق بين أحد من رسل اللَّه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥٢].

كل الأنبياء – عليهم السلام – في منظور المسلم سواء.. إخوة كادحون على الدرب الواحد الواصل إلى اللَّه.. بنّاؤون يواصلون رفع الجدران، وإقامة الأعمدة، بانتظار اليوم الذي سيجيء فيه الرسول الخاتم ﷺ لكي يُتمّ البناء.

عيسى عليه السلام تحديدًا، وباعتباره النبي الذي سبق محمدًا ﷺ، طالما أكد هذا المعنى، وبشر بالرسول القادم من رحم الغيب، نقرأ هذا في إنجيل (لوقا) و (يوحنا) و (متى) و (بولص)، كما نقرأه في إنجيل (برنابا) الذي

أصدرت عليه الكنيسة حكمًا بالإعدام منذ قرون بعيدة لأنه صرّح بنبوة محمد ﷺ بأكثر مما يجب !

ورغم ما طرأ على مقولات الأنبياء السابقين وكتبهم وصحفهم من تحريف كاد يأتي على الكثير من آياتها البيّنات.. ظلت ثمة معطيات تكاد تتخفى تحت ركام الأباطيل، ويمكن أن يرى الإنسان فيها أنبياء اللَّه على حقيقتهم، ويسمع صوتهم الأصيل.

من هذا القليل المتبقي يعثر الإنسان على كنوز الحكمة التي صدرت عن السيد المسيح عليه السلام والتي ينقل لنا جانبًا منها (نصري سلهب) في كتابه ذاك..

ومن هذا القليل المتبقي نلمح تطابقًا يثير الإعجاب بين ما قالته الكتب الدينية السابقة قبل تحريفها، وما يقوله القرآن الكريم..

ولقد أعلنها القرآن صريحة واضحة.. أنه جاء ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]. أي مؤكدًا بقايا الصواب في الكتب الدينية السابقة، ونافيًا خبثها وزبدها وتحريفاتها التي حقنها بها الكهنة والوضاعون.

المنبع واحد.. والنبض واحد.. والهدف واحد.. ورغم تحريف المحرفين يظل في الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين وصحفهم، مساحات من الصدق الباهر.. من

الحكمة الإلهية التي أغدقها اللّٰه سبحانه على أنبيائه الكرام.. من التعاليم المدهشة التي تقود إلى الصراط.. من قيم السلوك التي تستهدف حياة مترعة بالنبل والطهر والاستقامة والوضاءة..

إنها النبوة الواحدة.. والدرب الواحد.. أخوة العقيدة التي جعلت الأنبياء كافة يقفون في المسجد الأقصى صفًّا وراء محمد ﷺ يصلّون للّٰه سبحانه قبيل العروج برسوله إلى السماء..

ولا يملك الإنسان نفسه من الحزن وهو يرى كيف تفرقت السبل بهذه الوحدة الدينية، وكيف دسّ المدسوسون أنوفهم لكي يفرقوا بين اللّٰه ورسله - عليهم السلام -..

أترى متى سيجيء ذلك اليوم الذي يعود فيه الجميع إلى وحدتهم التي أرادها لهم اللّٰه سبحانه يوم أن بعث رسله تترى على البشرية حينًا بعد حين؟

* * *
* *
*

الأقوم.. والأعلى.. والأشمل

تحدّث كثيرون ممن اعتنقوا الإسلام أخيرًا في ديار الغرب بأن من يعرف هذا الدين جيدًا لا يمكن أن يتحول عنه.

وكيف يتنازل الإنسان الذي يملك ذرة من ذكاء عن قلادة من لؤلؤ أو ذهب ويستبدل بها قبضة من حصًى وتراب؟!

إن هذا الدين جاء بعد رحلة النبوات الطويلة في مجال بناء الجهد الديني، لكي يكون الحالة المكتملة والسقف الأعلى لكل المذاهب والعقائد والأديان: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

ومعنى رضا اللّه سبحانه عن هذا الدين، وهو أدرى بمن خلق، معنى إكماله وإتمام نعمته به على البشرية، أنه الدين الأقوم.. والأعلى.. والأشمل.. والأقدر على الاستجابة لحاجات الإنسان ومطالبه فردًا وجماعة.. وعلى تغاير الأماكن والأزمان..

وأي قلق في هذا المفهوم.. أي خلل أو تردّد، وبأية نسبة كانت، إنما هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وتشكيك باكتمال هذا الدين وإتمام نعمة اللّه به على الإنسان.

العلمانيون، من حيث عرفوا أم لم يعرفوا، أوقعوا أنفسهم

في هذه المفارقة الكبيرة.. ولطالما ردّدوا بأن الإسلام مجرد عبادات وطقوس وعلاقة بين الإنسان وخالقه، فليس ثمة ما يربطه على الإطلاق بنظم الحكم، وآليات العمل السياسي، وإعادة بناء العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في ضوء تعاليمه.

وبالمنظور الذي أشرنا إليه قبل قليل تبدو مقولتهم أشبه بعبث الصبيان وتغابيهم عن الحقائق الساطعة المؤكدة كنور الشمس.. إن لهم أن يقنعوا أنفسهم - بالخطأ - في ألّا علاقة للإسلام بعالم السياسة، أو الحياة العامة على امتدادها، ولكن ليس من حقهم على الإطلاق أن يفرضوا على الإسلام نفسه رؤيتهم الساذجة هذه.

فالإسلام، بما أنه المنهاج الأخير للبشرية.. والدين المكتمل في جوانبه كافة.. جاء لكي يعيد صياغة الحياة الدنيا، أو (الوجود) بكل تفاصيله ومفاصله، وفق التعاليم المُوحى بها من السماء.. لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلّا وحسب حسابها، ووضعها في مكانها الحق من خارطة المسيرة البشرية الراشدة.. في النفس.. في المجتمع.. في السياسة.. في الاقتصاد.. في الأسرة.. في العلاقات الدولية.. في السلم والحرب.. فيما لا مبرّر حتى للإشارة إليه لأنه بدهية من البدهيات.. ويكفي أن ننظر إلى العمارة

الفقهية المتنامية على مرّ القرون لكي تتأكد لنا مصداقية هذه الحقيقة.. ويكفي أن نطلع على مفردات مؤتمر القانون الذي عقد في باريس في أواخر أربعينيات القرن الماضي، والتي اعتبرت الفقه الإسلامي واحدًا من القمم السامقة في التشريعات الدولية، لكي نزيح كل الترهات الساذجة التي يقول بها العلمانيون، بل يكفي أن نرجع إلى القرآن الكريم نفسه والسنة النبوية، لكي نرى بأم أعيننا تلك الشبكة الخصبة من التعاليم والتشريعات التي تمتد في كل اتجاهٍ لكي تغطي وتتعاطى مع كل مفاصل الحياة البشرية على إطلاقها.

في بداهات العلم معروف أن الخط المستقيم هو أقرب المسافات بين نقطتين.. والصراط الذي منحنا إياه الإسلام، وجاء - أساسًا - لكي يقودنا إليه هو أقصر المسافات إلى الحقيقة المطلقة في عالم العقائد والأفكار.. أقصر المسافات وأشدها إحكامًا للنظام السياسي الأمثل، وللحياة الاجتماعية الأكثر توافقًا مع المطالب البشرية.. وللنشاط الاقتصادي الأقرب إلى الموازين العادلة التي لا تميل ولا تجور.

وإنه ما من عقيدة أو مذهب غير الإسلام، وضعيًا كان أم دينيًا محرّفًا، إلّا وهو يسلك بالإنسان والبشرية الطرق الملتوية المعوجة، فلا يصل إلى أهدافه إلّا بعد هدر هائل في الزمن والطاقات، وبعد أن يستنزف من الإنسان والبشرية الشيء

الكثير.. وقد لا يصل أساسًا، كما تأكد في رحلة المذاهب الوضعية والأديان المحرفة، التي انطفأ بعضها وخرج من التاريخ، والتي لا يزال بعضها الآخر يدور في التيه..

وصدق اللَّه العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *
* *
*

ننسى!

في لحظات الانكسار.. والإحباط.. والتراجع.. والهزيمة.. ننسى أن اللَّه سبحانه - وليس أي حاكم في العالم على الإطلاق - هو الحاكم المطلق في الكون.. وأنه - جلّ في علاه - لا يعجزه شيء في السموات والأرض.. وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

ننسى أنه وعد بالنصر النهائي لرسله وأتباعهم على مدار الأزمان والقرون وتعاقب الرسالات: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [المجادلة: ٢١].

ننسى أن الحياة الدنيا على امتدادها المخادع، إنما هي لحظة عابرة، وأن الحياة الحقيقية الدائمة هي هناك! وليس هنا.. وشتان..

ننسى أن على المسلم أن يعمل ويكدح سواء قطف ثمار عمله وكدحه في الدنيا أم لا.. فإن تصفية الحساب هناك في الآخرة وليس هنا في الدنيا..

ننسى أننا موظفون وأجراء عند اللَّه سبحانه الذي منّ علينا بنعمة الخلق والحياة، وأننا مرغمون - شئنا أم أبينا - على أداء مهماتنا الوظيفية، بغض النظر عن الحالات المتقلبة من الانكسار والهزيمة والإحباط، أو النهوض والأمل والانتصار..

من أجل هذا كله يحذّرنا القرآن الكريم من الانحدار إلى هاوية اليأس، ويقرنه بالكفر، بجعله إحدى صفات الكفار، داعيًا إلى تحصين المسلم من سرطانه الخبيث: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

والقرآن الكريم، وإلى جواره أحاديث رسول اللَّه ﷺ، يسعيان إلى وضع المسلم في هذا العالم في دائرة الثقة والاطمئنان واليقين والكدح الموصول والعمل الذي لا يوقفه شيء.. حياة مترعة بالعطاء والجهد المكافح والإنجاز والإبداع، بقدر ما تتحمله طاقة الإنسان، وتعينه عليه قدراته.. واطمئنان موغل حتى النخاع بأن اللَّه سبحانه لا يضيع - وحاشاه - عمل عامل في هذه الدنيا من ذكر أو أنثى.. فما دامت هذه الحياة المنصرمة موصولة بالآخرة وما دامت تصفية الحسابات الأخيرة لن تتمَّ إلَّا هناك.. فليس ثمة مجال ليأسٍ أو إحساسٍ بالإحباط.

وهكذا يجد المسلم نفسه ملزمًا في مواصلة المسير إلى الأهداف التي حمل أمانة التحرك إليها، والتحقق بها في هذا العالم.. يمضي وهو على يقين مطلق بأن ما يقوم به لن يتعرض للضياع ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

والعمل الإيجابي بطبيعته ينطوي على بعد تراكمي يقود

بالضرورة إلى التغيير المطلوب والاقتراب من الأهداف، طال الوقت أم قصر. فإن لم يتحقق القطاف على أيدي هذا الجيل أو ذاك أو الذي يليه، فإنه سيتحقق - يقينًا - بعد أن تكون الظروف الموضوعية، وشبكة الأخذ بالأسباب، قد استكملت مقتضياتها.

وهذه الحقيقة تمنح المسلم المزيد من اليقين والأمل، وتبعده عن مهاوي اليأس والقنوط.. لأنه في كل الأحوال سيحظى بإحدى الحسنيين أو بكلتيهما معًا: النصر الموعود في الدنيا والحصاد الكبير في الآخرة ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧].

* * *
* *
*

واحدة فحسب من معجزات هذا الكتاب

ضوابط النحو العربي ومعاييره وقوانينه لم توضع، كما هو معروف، إلَّا بعد عقود من الزمن على بعثة الرسول ﷺ في ضوء لغة العرب في أقصى درجات ضبطها وتجلّيها.. فكيف استطاع هذا الرجل النبي أن ينجز كتابًا لم يتطرق إليه أي خلل بأية نسبة كانت في بنيته اللغوية، رغم أمية هذا الرجل، ورغم تعامله مع الوحي، تلقيًا وتلاوة، بطريقة شفاهية لم يستخدم فيها القلم لحظة واحدة.. ورغم تنزّل الآيات والسور على مكث.. أي على فترات زمنية تجعل أشد العباقرة معرضين للسهو والنسيان، وتجاوز هذه المفردة أو تلك من شبكة الضوابط، والوقوع - بالتالي - في الخطأ؟

كيف بالنبيّ الأمي الذي لم يكن يحسن القراءة والكتابة، والذي كان مجرد وسيط بين السماء والأرض، لنقل ما يتنزل من كتاب اللَّه؟

إنها معجزة أخرى بكل تأكيد لهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، جنبًا إلى جنب مع معجزات القرآن الأخرى التي تنضفر لكي تؤكد بشكل قاطع لا ينطوي على أي هامش للاحتمال، وبأية نسبة كانت على الإطلاق.. أنه منزل من لدن حكيم عليم: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا

كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ولطالما أشار القرآن الكريم إلى إحكام البنية اللغوية لهذا الكتاب لكي يستوعبه العربي، ولكي يتأكد المتلقون من العرب يومها، ومن الشعوب والأمم التي ستجيء بعدهم، أنه كتاب منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣ - ١٩٥]، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإذا ما أضفنا إلى هذه المعجزة اللغوية، المعجزة البيانية، وإذا ما أضفنا إليهما المعجزة التشريعية، والمعجزتين العلمية والمعرفية، وجدنا أنفسنا أمام عشرات الشواهد ومئاتها على مصداقية هذا الكتاب المدهش.

ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. أما مرضى القلوب والعقول فإنَّ ألفَ معجزة لن يكون بمقدورها أن تزيل طبقة الصدأ عن قلوبهم وعقولهم لكي تقفهم وجهًا لوجه أمام الحقائق الناصعة، وتمنحهم الاقتناع. وهي على أي وجه من الوجوه، حالة مرضية لا يحسب حسابها لدى الحديث عن إعجاز القرآن.

وفي المقابل فإن هنالك المئات والألوف وعشرات الألوف ممن ساقتهم المعجزة إلى التسليم بهذا الدين، وبالمصداقية المطلقة لكتابه المدهش.

ومن بين هؤلاء عشراتٌ ومئاتٌ ممن تحدثوا عن أسباب انتمائهم لهذا الدين؛ وكان يقف على رأسها ولا ريب إعجاز القرآن..

ومن بين هؤلاء نتذكر المحاولة القيمة التي نفذها العالم الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه المعروف (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة)، والتي حاول فيها - وهو الرجل العلماني الذي لا يدين بدين كما أكد هو نفسه - أن يختبر مدى مصداقية المفردات المعرفية التي انطوت عليها الكتب الدينية الثلاثة وعدم تعارضها مع الكشوف المعرفية الحديثة.

وكانت النتيجة أن تسعة من كل عشرة من هذه المفردات الواردة في التوراة تسقط بإحالتها على الكشوف المعرفية المعاصرة، ولا يمرّ سوى العشر، وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل، أما في القرآن فإنها تمرّ جميعًا، عشرة من عشرة!!

ويخلص الرجل إلى القول بأن ذلك لا يمكن أن يكون من صنع إنسان، وأن القرآن الكريم لا بدّ وأن يكون مصدره خارج حدود القدرة البشرية، وبكل تأكيد..

إذ كيف تسنى لمحمد ﷺ أن يزيح من أخطاء التوراة والإنجيل تسعة أعشارها ولا يتقبل سوى العشر الصحيح في ضوء خبرة معرفية لم يقدر لها أن تتشكل وتتضح إلَّا بعد مرور أربعة عشر قرنًا؟!

ويعلن الرجل إسلامه.. واحدًا من عشرات ومئات وألوف ممن ساقتهم معجزة القرآن إلى التسليم بهذا الدين..

* * *
* *
*

من أدلّة الصدق

المسلمون في هذا العالم هم الوحيدون الذين يقرّون بالنبوات كافة، ويحترمون الأنبياء جميعًا - عليهم السلام -.. وهم يتلقون تحذيرًا يوميًّا في كتاب اللَّه بألّا يفرقوا بين رسل اللَّه وأنبيائه الكرام: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]... ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

بينما كل أتباع الديانات الأخرى على الإطلاق..

يفرّقون.. بل يعلنون العداوة والبغضاء لهذا النبي أو ذاك.. ثم هم يمضون إلى أبعد من ذلك فيسبّون ويلعنون!!

أليس هذا وحده كافيًا لتأكيد مصداقية هذا الدين والمنتمين إليه؟

ورغم كل انحرافات أهل الكتاب.. رغم كل كيدهم للمسلمين ودينهم ونبيّهم ﷺ، ظل المسلمون وظل نبيهم ﷺ أوفياء معهم..لا لشيء إلّا لأنهم أتباع أديان كانت في أصولها قادمة من السماء.. وأتباع رسل كانوا جميعًا إخوة لرسول اللَّه..

وحتى ساعات وفاته الأخيرة، كان رسول اللَّه ﷺ يردّد القول لمن حوله: « **أوصيكم بأهل ذمتي** ».. هكذا بياء العطف عليه شخصيًّا، ولذلك دلالته ومغزاه..

وعلى مدى عصر الرسالة.. بل على مدى التاريخ الإسلامي كلّه.. كان المسلمون صادقين مع أنفسهم وهم يعتبرون (أهل الكتاب) - بهذه التسمية التي تحمل دلالتها هي الأخرى - أقرب إليهم من الوثنيين والكفار.

الشواهد كثيرة.. كثيرة جدًّا.. ويكفي أن نرجع إلى كتاب المستشرق البريطاني المعروف (سير توماس أرنولد): (الدعوة إلى الإسلام) وإلى كتاب المستشرق الآخر (تريتون): (أهل الذمة في الإسلام)، وإلى كتاب الدكتور

عبد الكريم زيدان (أحكام أهل الذمة والمستأمنين في الإسلام) لكي نرى مئات الشواهد وألوفها على ما نقول.

سأقف عند حالة تاريخية تعكس الكثير من القيم والدلالات: في العصر المكي وردت الأخبار من ديار الجزيرة الفراتية والشام تحمل نبأ هزيمة الروم البيزنطيين على أيدي الفرس الساسانيين..

حزن المسلمون حزنًا شديدًا لانكسار أهل الكتاب من النصارى أمام الفرس المجوس الوثنيين، وتنزّلت آيات اللَّه المعجزة لكي تطمئنهم على أن البيزنطيين من أهل الكتاب سيعيدون الكرة وسينتصرون: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٦].

وكما وعد القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فبعد بضع سنوات عاد البيزنطيون وألحقوا بالفرس هزيمة نكراء أعادت الفرحة إلى قلوب المسلمين.

أيُّ صدقٍ هذا مع الذات؟ وأي التواءٍ في المقابل، يتعامل به أهل الكتاب مع المسلمين وكتابهم ونبيّهم ﷺ؟

عندما قدم وفد من يهود خيبر إلى مكة في العام الخامس للهجرة، لتحزيب الأحزاب ضد دولة الإسلام الناشئة، والتقى الزعيم الوثني أبا سفيان، سألهم هذا: يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ أجاب اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!!

كانوا على استعداد لأن يكذبوا على أنفسهم في سبيل مكسب أو مغنم عاجل يغنموه..

أي فارقٍ كبيرٍ هذا بين الموقفين؟ ألا يكفي وحده أن يكون دليلًا على مصداقية هذا الدين؟!

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

أسطورة الصراع على المغانم

يقول الباحث والفنان الإنكليزي (روم لاندو) في كتابه: (العرب والإسلام): « ومثل الصبي الذي ورث دكان الحلوى، ذهل المحارب العربي حين وقع بصره على الكنوز الفارسية مطروحة عند قدميه، ومن ثم انغمس في فنون من الإسراف والاشتطاط حطمت رغبته في القتال »[1] ونسي (روم لاندو) وهو يعاين هذا الجانب المجزوء من الصورة، أن المقاتل العربي لم يمدّ يده إلى هذه الكنوز التي نقلت إلى عاصمة الخلافة بكاملها لكي توزع هناك بالعدل والقسطاس.. لقد تمنّع على إغراءات « الأخذ » لأنه كان يمارس مهمة « العطاء » في أعلى حالاته: منح الروح والاستشهاد في سبيل اللّه.. لقد كان يتعامل مع الموت الذي يقف على بُعد خطوات.. فلم تكن الدنيا بكل كنوزها تخطر له على بال.

ونسي (روم لاندو) أن الرغبة في القتال لم تتحطم أبدًا.. بل مضت حركة الجهاد تتدفق كالسيل لكي تفتح مشارق الأرض ومغاربها.. وتنداح، بصيغة موجات كبرى تعقب إحداها الأخرى، على مدى تاريخ متطاول يبدأ في عصر

(١) ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية (ص ٦١).

الرسالة ويطل برأسه على العصر الحديث.

الرغبة نفسها في مجابهة التحديات، والاندفاع إلى الأمام، ووضع الأرواح على الأكف، والتحقّق بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.. لم تفتر يومًا ولم ينطفئ أوارها في نفوس المجاهدين أبدًا..

ونسي (روم لاندو) ما كان يقوله سفراء المسلمين إلى كسرى ورستم عندما كانوا يسألون: « ما الذي أخرجكم؟ » فيكون الجواب القاطع كحدّ السيف: « اللَّه ابتعثنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده.. ».. فهو - إذن - التحرير الكبير الذي نُذرت له النفوس، وليس الطمع في المغانم التافهة مهما كان بريقها لامعًا متوهجًا..

نسي أيضًا ذلك الحوار الذي جرى بين سفير المسلمين المغيرة بن زرارة وبين رستم الذي قدم وعدًا بأنه على استعداد لإمداد العرب بالطعام شرط أن يكفوا عن مهاجمة الفرس، فكان جواب المغيرة: « ما لهذا جئناكم. فواللَّه لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم - بعد - أحب إلينا من صلحكم ». وعند ذاك يسأله رستم وهو لا يدرك الأبعاد الحقيقية لحركة الفتح: « ما الذي أخرجكم إذن؟ ».. فيجيئه الجواب القاطع: « اللَّه بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من

ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّٰه وحده »!!

وروم لاندو، مع تقديرنا لمؤلفه القيّم (العرب والإسلام) ونزوعه الموضوعي في معظم الأحيان.. يسلّم على ما يبدو « بكليشة » دارت بالخطأ على أفواه العديد من الباحثين والناس العاديين، وهي أن الرغبة في المغانم والتقاتل عليها كانا الدافع الذي يحتل مساحة واسعة في صراع المسلمين ضد خصومهم.. وهي مقولة « تقليدية » لا يمكن التسليم بها بسهولة؛ لأنها ترتطم - ابتداء - مع حقيقة أن الفاتحين كانوا في معظم الأحيان الأقل عدة وعددًا من خصومهم، ومع ذلك كانوا ينتصرون عليهم.

فأي دافع مادي هذا الذي يغيّر المعادلات ويقلب الموازين؟ وأين دور الإيمان الذي يمكّن القلة من الانتصار على الكثرة في معظم الأحيان ؟

وكلنا يذكر - على سبيل المثال - ما كان يتردّد على الألسنة من أن هزيمة عبد الرحمن الغافقي أمام الفرنجة عام (١١٤هـ) عند توربواتييه، وفشل المحاولة الإسلامية الأكثر خطورة لاختراق فرنسا والوصول إلى باريس، إنما كانت بسبب الصراع الذي احتدم بين العرب والبربر على المغانم!!

أية مغانم والمعركة لم تنته بعد؟ وهل يعقل أن يصطرع

الطرفان على مغانم لم تقع في أيديهم بعد؟

وفي بحث قيّم لأستاذ الجغرافية الطبيعية في جامعة بغداد: الدكتور علي المياح، نشر في مجلة (المحارب) العراقية قبل أكثر من ربع القرن، نلتقي الرؤية العلمية النافذة التي تفسّر أسباب الانكسار.. إنها تحديات الجغرافيا التي تفوق القدرة على الاستجابة.. صعوبات الطوبوغرافيا والمناخ.. البعد عن مراكز التموين.. وغيرها من الأسباب التي آلت إلى النتيجة المحزنة، ولم يكن الصراع على المغانم من بينها على الإطلاق!!

* * *
* *
*

وأنت بعدُ في الدنيا؟!

الصحابي الجليل والشاعر المعروف عبد اللَّه بن رواحة، يتسلم القيادة في معركة مؤتة (٨هـ) بعد استشهاد رفيقيه جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة - رضي اللَّه عنهما -.. يقاتل الروم ببطولة نادرة حتى يجف ريقه.. يتقدم إليه أحد إخوانه المقاتلين فيعطيه بضع تمرات تعينه على مواصلة القتال.. « خذ.. شد بها صلبك فإنك لقيت في يومك هذا ما لقيت ».. يقول له.. يضع إحداها في فمه محاولًا مضغها فتستعصي على الانزلاق في ريقه المتيبّس.. ينظر فيرى أخويه ممزقين في ساحة المعركة، وقد سبقاه إلى هناك، فيلفظ التمرة ويخاطب نفسه مندهشًا: وأنت بعد في الدنيا؟ ثم ما يلبث أن يواصل القتال حتى تمزقه سيوف الروم..

يا اللَّه.. كم هي تافهة، منحسرة، متضائلة، هذه الحياة الدنيا في أعين المعلّمين الكبار من أصحاب رسول اللَّه ﷺ؟! لقد استكثر ابن رواحة على نفسه ساعات، بل دقائق من الحياة فأعلن رفضه إياها ببطولة نادرة، واستأنف القتال ملتحمًا بالأعداء من أجل أن ينال الشهادة ويلحق برفيقيه..

ذلك أن الحياة والموت كانتا عند أولئك الكبار حالة واحدة ذات وجهين: **فأما أولهما** فحلم من الأحلام العابرة،

وأما ثانيهما فهو الحقيقة الصلبة الخالدة التي كتب لها الدوام.. وأن الانتقال من حال إلى حال لا يعدو أن يكون نقلة لا تكاد ترى، ولا تستحق كل هذا الهم والحزن والخوف الذي ينتاب معظم الناس وهم يفكرون في الموت أو يقتربون منه..

وكان رسول اللّه ﷺ قد حذرنا من الحرص على الحياة.. الحرص الذي يتجاوز حده المعقول، ويرغم الإنسان على أن يتشبث بالدنيا.. أن يصير عبدًا لها، وأن يخضع لإغوائها الذي يضع الإنسان في دائرة الأسر الذي يفقده الاتصال بالعالم، ورؤيته على حقيقته..

بل إن بعض الناس يبلغ بهم الأمر أن يتصوروا أنهم خلقوا لكي لا يموتوا.. لا يدخل دائرة قناعاتهم وسط لهاثهم المحموم وراء إغراءات الحياة الدنيا وصخبها، أن النهاية قريبة، وأن الموت يقف لهم بالمرصاد.. على بعد خطوات..

ومن ثم، في غمرة هذا الضباب الذي وضعوا أنفسهم فيه، تهتز لديهم الموازين، وتتميع القيم، وتغيب الرؤية الصائبة لمهمة الإنسان في هذا العالم..

وعندما يشيخون، رغمًا عنهم، لا يكفون عن اللِّهاث المحموم وراء الجاه والمال، متذرعين بأن عليهم أن يهيئوا لذريتهم مستقبلًا محوطًا بالضمانات، وما هو في حقيقته سوى الوجه الآخر لتشبثهم بالحياة، وحرصهم عليها،

ورغبتهم في الاستمرار بمواجهة تحديات الموت والفناء.

أعرف رجلًا من أثرياء مدينتي كان يدلف إلى الثمانين.. وكان يهرع يومًا بيوم إلى عمارة كبيرة كان يشرف على بنائها في شارع كبير من شوارع المدينة الرئيسية.. فلما اكتملت العمارة، لم يجد بأسًا في أن يؤجر أحد محلّاتها لحانة تبيع الخمور وتستقبل المدمنين..

ومن عجب أن الرجل كان يصلّي ويصوم ويقرأ القرآن.. لعله كان يبرّر لنفسه ضرورة توفير الضمانات لذريته من بعده.. نوع من خداع الذات والتحايل على الموت..

ومن عجب - كذلك - أن معظم الذين يكدحون من أجل إيجاد الضمانات لأبنائهم، يجيء هؤلاء الأبناء فلا يقدّرون جهد الآباء حق قدره ويبعثرون الثروات التي جاءتهم دونما عناء..

إنها أقبح صفقة يمكن أن يمارسها الإنسان.. أن يبيع آخرته بدنيا غيره..

وثمة فرق كبير بين هذا النمط الذي تعج به المدن في ديارنا الإسلامية، وبين ابن رواحة الذي استكثر على نفسه دقائق مضافة من الحياة!

أيمكن أن يكون هذا هو أحد أسباب انكسارنا في الزمن الرمادي الذي نعيشه؟

نعم.. وبكل تأكيد، إذا تذكرنا رؤية الرسول ﷺ، المترعة بالشفافية والتي طالما دفعته إلى تحذير أمته من مأساة الالتصاق الزائد بالحياة الدنيا: « **ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم** »!! [متفق عليه].

* * *
* *
*

اللّـه سبحانه واللدائن الرخوة

هنالك خطأ كبير يمارسه الشكوكيون وأنصاف المؤمنين.. خطأ يدعو للرثاء والسخرية، وهو جعل الدماغ البشري، تلك اللدينة الهشة ذات الإمكانات المحدودة، حاكمًا على الوجود الإلهي والكوني، قديرًا على اختراق الظاهر إلى الباطن والوجود إلى الغيب.. وهي مهمة لم يرد للعقل البشري أن يتعامل معها ابتداء ويكشف سرّها المنوط بالوحي القادم من السماء.. وحده.

إننا ندخل معادلة غير منطقية على الإطلاق عندما نحاول أن نحمّل الدماغ البشري ما لا يطيق، ونرغمه على الدخول في مجاهيل لا طاقة له البتة في اكتشاف سرّها المجهول.

ولحكمة يريدها اللّه سبحانه تنزّلت الأديان لكي تمنح الإنسان الجواب على جانب من الأسئلة التي تؤرقه في هذا المجال.. وتبقى جوانب أخرى في علم اللّه وغيبه الذي لن تستطيع عقول البشر جميعًا أن تجتازه إلى العمق، بل أن تبلغ حافاته: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

إننا نتوهم بعقولنا المهيّئة للتعامل مع العالم الصغير، الكرة

الأرضية التي لا تزيد عن أن تكون هباءة في مسرح الكون الكبير.. نتوهم أننا نملك القدرة والأدوات على حلّ ما يبدو معضلات كونية، والاطلاع على بعدها الغيبي، تمامًا كما لو أن مجموعة من النمل اجتمعت لكي تعرف كيف استطاع المهندس البشري إقامة ناطحات السحاب بهذا الارتفاع الهائل دون أن تميل أو تسقط على الأرض.. أو تدرك سرّ نزول المطر بالغزارة التي تلحق الأذى بمجمعاتها السكنية.

إننا ونحن نمارس هذه اللعبة الصبيانية المضللة، نحاول أن نجمع تفاحة إلى برتقالتين ونقول: بأن حاصل الجمع ثلاثة فيما هو مستحيل في المنطوق الحسابي.

ولطالما طرح الشكوكيون وأنصاف المؤمنين على أنفسهم هذا السؤال: إذا كان اللَّه سبحانه أزليًّا فهل (يعقل) ألا تكون له بداية؟ وإذا كان الكون بأجسامه وفضائه من خلق اللَّه فأين هي حافاته الأخيرة؟

أسئلة تدعو للشفقة لأن الإجابة عنها بالقدرات العقلية المحدودة التي منحها اللَّه الإنسان، مستحيلة بكل معيار من المعايير.

لقد وضعنا اللَّه - سبحانه - في الموقع المناسب تمامًا لمهمتنا البشرية في العالم، وقال لنا في كتابه وسنة نبيه ﷺ أن علينا أن نتعامل مع فيزياء العالم.. مع الكتلة، لكي

نعرف أبعادها ونكتشف أسرارها ونوظفها لتنمية الحياة وترقيتها فيما يجعلها ملائمة للمهمة الكبرى لخلق الإنسان ألا وهي عبادة اللّه سبحانه.. وحذرنا رسول اللّه ﷺ من أن نتجاوز مهمتنا هذه، فنعبر الفيزياء إلى ما وراءها، إلى ما سماه الفلاسفة (الميتافيزيقا) فيما لا نملك معه أدوات العمل، فقال: « **تفكروا في آلاء اللّه ولا تفكروا في اللّه** » [رواه البيهقي والطبراني].

فكأنه - بهذا - أعطانا خارطة العمل المرسومة بعناية لأداء مهمتنا - الاستخلافية - الحضارية في هذا العالم.

ويوم أن أصغينا للنداء، والتزمنا برنامج العمل، عرفنا كيف نتحضّر، وكيف نكون سادة الدنيا.. ملكنا الأرض وكانت عيوننا معلقة بالسماء.. سلّمنا بمعطيات الوحي ومضينا لكي نتعامل مع الوجود فنعيد صياغته بما يريده اللّه سبحانه ورسوله ﷺ.

وبمرور الوقت، وبتأثير الفلسفة اليونانية وإغوائها، زاغت شرائح من الآباء والأجداد عن الطريق المرسوم.. وراحت تركض وراء ما يمكن اعتباره سرابًا (الميتافيزيقا).. على اعتبار أن فك طلاسمها أمر مستحيل.. فضيعت بذلك زمنًا وجهدًا كبيرين كان يمكن لو أحسن التعامل مع الدنيا بالمنطوق القرآني لا اليوناني، أن نمضي قدمًا في سلم

الإنجاز الحضاري، وألا نسمح للغربيين الذين لا يعرفون اللّه (سبحانه) أن يسبقونا ويمسكوا برقابنا.

ولا تزال خرائط العمل القرآنية والنبوية مفروشة بين أيدينا، ولا نحتاج لكي يكون لنا مكان في العالم، سوى أن نشمّر عن ساعد الجدّ، وأن نتعامل معها بأقصى درجات الصدق والفاعلية والذكاء.

* * *
* *
*

الأشياء.. أم الإنسان ؟

لعل أحد الفروق الأساسية بين الإسلام وبين النظم والمذاهب الوضعية، أن الأخيرة تكافح من أجل وضع الأشياء في أماكنها، بينما يسعى الإسلام لوضع الإنسان نفسه في مكانه الصحيح.

علم متقدم.. تكنولوجيا متفوقة.. عمران يثير الدهشة بتكوينه وجمالياته..مدن رائعة.. خدمات أسطورية.. توزيع مدهش للتخصصات في شتى مجالات الحياة اليومية.. شوارع.. فنادق.. سوبر ماركتات.. نوادٍ.. ملاهٍ.. مدن ألعاب.. مسابح.. حدائق.. وسائط نقل.. تقنيات معلوماتية وإعلامية تفوق الخيال.. إلى آخره.. إلى آخره.. كلها وضعت في أماكنها المحددة لتكون تحت تصرّف الإنسان.. طوع أمره، وبين يديه.. ومع ذلك فإن الإنسان نفسه ليس في مكانه!

وحدها العقيدة القادمة من السماء من ينفذ هذه المهمة.. وهكذا تنزلت الأديان جميعًا لكي تتعامل - ابتداء - مع الإنسان، فإذا صلح الإنسان صلح العالم، وإذا تعرض للضياع.. للخروج من مكانه الصحيح.. فإن العالم كله قد لا يعني شيئًا بالنسبة إليه.. وكلنا يذكر المقولة المعروفة: « ماذا لو ربح الإنسان العالم كله وخسر نفسه؟ ».

ويجيء الإسلام لكي يتوج جهد الأنبياء - عليهم السلام - عبر مسيرتهم الطويلة، ويختم على دعواتهم بالدين أو المنهج المكتمل الذي لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، والذي كان (الإنسان) نقطة انطلاقه إلى العالم وليس العكس.

ومنذ لحظات الهبوط الأولى قيل لآدم عليه السلام أن عليه أن ينتظر الكلمة.. الوحي، أو الدين، أو المنهج القادم من السماء لكي يجتاز وذرّيته العالم على هدى وبيّنة: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦]، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٧ - ٣٩].

ومنذ ذلك الوقت انطلق الرسل والأنبياء - عليهم السلام - في أماكن شتى من الأرض، يحملون المنهج للبشرية، ويفنون أعمارهم في الدعوة إليه.. وكانت البداية

دائمًا هي هداية الإنسان وإعادة وضعه في مكانه الصحيح على خارطة المسيرة البشرية في العالم.. وكان الإسلام - خاتم الرسالات - تتويجًا لهذا كله.

وابتداء من المواعظ والعبادات وآداب السلوك، وانتهاء بالنظم والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، استهدف الإسلام إعادة بناء الإنسان واعتماده نقطة انطلاق لبناء العالم.. ونادى القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].. التغيير الذاتي، أو ما سماه الرسول ﷺ (الجهاد الأكبر)، هو دائمًا نقطة الانطلاق، فإذا تحقق ذلك وصلح الإنسان، صلح العالم وأصبح بيئة مناسبة تمامًا لحياة آمنة مطمئنة سعيدة متوافقة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان.

النظم والمذاهب الوضعية تسلك الطريق المعاكس فتبدأ بالعالم من أجل أن يكون مناسبًا لخدمة الإنسان، وهي في عملها هذا قد تنسى الإنسان فيضيع في العالم الكبير الذي هيئ لخدمته.

إنها مفارقة محزنة بكل تأكيد، وهي تنعكس في هذا الإقبال المتزايد في الغرب على المخدرات والحشيش والأفيون والمغيبات بشتى صنوفها وأنواعها.. كما تنعكس

في تزايد معدلات الانتحار في أكثر البلدان الغربية تقدمًا وثراء وعمرانًا.. وفي حالات القلق والاكتئاب التي تأخذ برقاب العدد الجم من الغربيين.. وفي ضياع الأجيال الشابة ورغبتها في الهروب.. كما أنها انعكست وتنعكس في تصاعد معدلات الجريمة والجريمة المنظمة بشكل مثير.. بل إنها قبل هذا وذاك انعكست في جملة من الضغوط والمظالم التي حاقت بالإنسان حينًا وبالمجتمعات حينًا آخر..

وعجلة الحياة الغربية ماضية تبني وتعمر وتتكاثر بالقوة والأشياء والأموال والخدمات، ولكنها تنسى الإنسان.. هذا الكائن الفريد الذي وُضِعَ العالم كله في خدمته، يوم خلق اللّه السموات والأرض، والذي تنزلت الأديان تدعو إلى أن يحيا حياة آمنة مطمئنة متوافقة وسعيدة..

ولكنه اختار أن يمضي في الطريق الخاطئ..

ومرة أخرى: ماذا لو ربح الإنسان العالم كله وخسر نفسه؟!

* * *
* *
*

التطابق المدهش

إحدى معجزات هذا الدين ذلك التطابق المدهش بين معطيات القرآن والسنة النبوية وبين الخبرات البشرية في أعلى حالاتها تألقًا ومنطقية وتوازنًا.

وبمرور الوقت تمضي الخبرات البشرية، في هذا الجانب أو ذاك من الحياة، صوب المزيد من النضج والاكتمال.. وكلما اقتربت أكثر من سقفها العالي أصبحت أكثر قربًا – في الوقت نفسه – من الحالة أو الموقف الإسلامي في المجال نفسه، وقد تصل حدّ التطابق المدهش حينًا بعد حين.

خذ مثلًا تأرجح الخبرة الغربية بشأن التعامل مع المال في الرأسمالية والشيوعية وما بينهما من درجات، ثم استقرارها في عدد من البلدان المتقدمة عند الحالة الوسط التي تلتقي فيها وتتناغم بتناسب معقول قيم الملكيتين الخاصة والعامة.. الرأسمالية والاشتراكية.. وهي الحالة نفسها التي يتّسم بها الموقف الإسلامي من المال في خطوطه العريضة والتفصيلية على السواء. وقد عالجت جانبًا من هذه المسألة في كتابي (مقال في العدل الاجتماعي) فلا مبرّر لإعادة القول فيه.

الأمر نفسه ينطبق على التأرجح الغربي بين الفردية

والجماعية، وبين العدل والحرية، وبين القوة والحكمة.. إلى آخر ما هنالك من ثنائيات شتى كانت تصطرع فيما بينها في دائرة الحياة الغربية فتميل حينًا باتجاه هذا القطب وحينًا باتجاه ذاك، وفي الحالتين كانت وهي تتقبل الانحياز الكامل للقطب المذكور، تعلن الحرب على القطب الآخر وتلغيه من الحساب.

ولكن عندما كانت الخبرة الغربية تؤوب إلى حالة التوازن والتوافق، في هذه المرحلة أو تلك، يحدث ذلك التطابق المدهش مع الخبرة الإسلامية في السياق نفسه..

إنه - بإيجاز - علم اللّه سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مقارنًا بعلم العبيد النسبي الاحتمالي المتغير، والذي قد تتاح له الفرصة أحيانًا لمزيد من النضج والاكتمال، بمرور الوقت وبقوة الجهد والكشف البشريين المتناميين، وحينذاك تتحقق المقاربة، وربما التطابق بين الخبرة البشرية والإسلامية.

ويأسف الإنسان على هذه المفارقة غير المبررة التي تنطوي على قدر كبير من هدر الجهد والوقت والمال، فيما يمكن تسميته بتجربة الخطأ والصواب للوصول في نهاية الأمر إلى جادة الصواب.. بينما الجادة موجودة بين أيدي البشرية في كل مسالك الحياة، فيما سبق وأن منحته إياها

الأديان والتي بلغت أقصى درجات اكتمالها في الإسلام:
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والمبدأ نفسه يمضي لكي يتعامل مع خبراتنا الفردية التي تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، والتي لا نكاد نعرف ونحن نسبح في خضمّها، الخطأ من الصواب، والصحيح من المعوجّ، والمقبول من غير المقبول.

والأمثلة كثيرة لا يستوعبها مقال كهذا، ويكفي أن أشير إلى أن الإنسان في مرحلة مراهقته بوجه الخصوص قد يتمرد على قوانين العائلة وثوابتها المؤكدة دينيًّا: حنوّ الأبوة الزائد على الأبناء.. الاحترام المبالغ فيه من الصغار للكبار.. الشبكة المعقدة في التعامل مع الميراث.. لكنه عندما يكبر، ويزداد نضجًا واكتمالًا، يجد أن هذا كله قد وضع في مكانه المناسب، وأن نقائضه تمثل خروجًا خاطئًا على منظومة العلاقات الأسرية.

إفشاء السلام.. والكلمة الطيبة.. والبسمة الحانية على

الوجوه.. وردّ التحية بأحسن منها أو مثلها.. لا يعرف قيمتها الحقة إلّا من ذاق مرارة الجفاء والكلمة الجارحة، والوجوه العابسة، والردّ على التحية ببرود.

كلنا تعامل مع الحالتين، وعرف بعد اكتوائه بالنار، كيف يوغل علم اللّه في شرايين النفس البشرية ويمنحها سبل الوقاية التي تغنيها عن العلاج ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *
* *
*

العودة التي تتكرر دائمًا

في كتاب الباحث المسيحي اللبناني المعروف (نصري سلهب): (لقاء المسيحية والإسلام) (صفحة ٢٢) ترد عبارة يؤكد فيها المؤلف على اعتبار الزواج ضرورة من ضرورات الحياة البشرية.. وهو بهذا يردّ على طوائف من المسيحيين أنفسهم ترفض فكرة الزواج، وتعتبره دَنسًا لا يليق برجل الدين، فيما يذكرنا - ولكن في اتجاه مضاد آخر - بدعوى الماركسية أن الزواج ظاهرة بورجوازية موقوتة، وأنها ستزول بالضرورة بزوال هذه الطبقة المتحكمة وتسنّم البروليتاريا مقاليد الحكم والسلطان. وأنه - أي الزواج والارتباط الأسري - قد يعيق الطبقة العمالية عن الانصراف الكلي للإنتاج الذي هو مهمتها المقدّسة!

وقد حاول الشيوعيون في السنين الأولى لقيام دولتهم (الاتحاد السوفياتي) أن يستعيضوا عن الزواج بالعلاقات الجنسية العابرة، وبما نظّر له عالم النفس الماركسي (ولهلم رايخ) فيما سماه نظرية (كأس الماء) التي تقول: أن على الإنسان الكادح أن يطفئ عطشه الجنسي بلقاء عابر مع أية فتاة.. ثم يمضي إلى عمله..

وبعد أقل من سنتين وجد (لنين) زعيم الدولة أن الجيل

الجديد سيكون معظمه من أولاد الحرام، فأصدر بيانه المعروف بضرورة الزواج، واحترام تقاليد الأسرة، باعتبارها المحضن الطبيعي لتنشئة الأجيال الصالحة.. وبذلك نقض إحدى عرى الماركسية نفسها التي كانت ترى الزواج شأنًا بورجوازيًّا مرذولًا وزائلًا..

ها هما الطرفان: المسيحي والشيوعي، يجدان نفسيهما مرغمينِ على العودة إلى فطرة اللّه، وأن كل ما قالوه، ومارسوه، ونظّروا له، لا يعدو أن يكون مروقًا عن مطالب الفطرة، وارتطامًا مؤلمًا بإنسانية الإنسان: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه عينة واحدة فحسب من بين عشرات، بل مئات الخبرات التي تمرّد فيها الإنسان على الفطرة، واصطرع معها (بتعبير الناقد الإنكليزي روبرت كونكويست)، ثم وجد نفسه مرغمًا، بعد سلسلة من الإخفاقات والمرارات، على أن يفيء إليها مرة أخرى، رغم أن العديد من عمليات الخروج تلك حاول أصحابها أن يلبسوها رداء التنظيرات الفلسفية حينًا، والدينية حينًا آخر..

لكن ضغط الفطرة نفسها، ومطالبها الملحّة.. الفطرة

في سويّتها المعتدلة كما خلقها اللَّه سبحانه، كانت أقوى بكثير من كل التنظيرات والتحريمات التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

ولا زلت أذكر - في هذا السياق - ما حدث في ستينيات القرن الماضي عندما احتدمت المعركة في مجلس النواب الإيطالي، وهو على بعد خطوات من الفاتيكان، عاصمة الكاثوليكية في العالم، حول إباحة الطلاق التي وقف إلى جانبها النواب التقدميون واليساريون والشيوعيون، وانتهى التصويت بفوز ساحق لهؤلاء ضد الداعين إلى تحريم الطلاق.. وخرجت الصحف الإيطالية الاشتراكية والشيوعية في اليوم التالي تهلل لهذا الإنجاز التقدمي بإباحة الطلاق.. وكسر قيد التأبيد الذي فرض على بعض المسيحيين فرضًا..

ها هي ذي حلقة أخرى من حلقات العودة إلى فطرة اللَّه.. وهناك غيرها الكثير..

ودائمًا كانت الدعاوى البشرية الوضعية أقصر قامة، وأقل نفاذًا إلى المطلوب.. من مبادئ الدين..

فتلك من معطيات الإنسان النسبية، المحدودة والعاجزة.. وهذه من تعاليم اللَّه سبحانه.. وشتان..

* * *

هناك أنماط أخرى من التلوّث

في مقال سابق تحدثت عن التلوّث البيئي الذي صنعته أيدي البشرية في العصر الحديث، وهو تلوّث يلحق أشد أنواع الأذى المادي والنفسي بالناس، ويضيّق الخناق عليهم، ويجعل الحياة أكثر صعوبة ومعاناة.

والحق أن العصر يشهد أنماطًا أخرى من التلوّث لا تقل أذًى عن التلوث المذكور.. فهناك التلوث الأخلاقي، والتلوث الاجتماعي، والتلوث النفسي، والتلوث السياسي، والتلوث الفكري.

وكل نمط من هذه الأنماط يحتاج إلى وقفة طويلة لتوصيفه، وللإحاطة بالنتائج المحزنة التي ترتبت عليه.. وهذه الأنماط جميعًا تندرج تحت حكم الآية القرآنية الجامعة: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

فالقرآن الكريم هاهنا يتحدث عن التلوّث بصيغه كافة، ماديّة ومعنوية، فرديّة وجماعية، نفسية واجتماعية، سياسية وعسكرية، فكرية وحضارية في نهاية المطاف.

فها نحن نشهد بأم أعيننا تمركز بقع التلوث على صفحة العالم، وانداحها السرطاني لتغطية مساحات أوسع

فأوسع.. وهي تمتد بكل اتجاه، وتحمل صنوفًا من الشرّ والضلال والأذى الذي ينذر الحياة البشرية بالويل والثبور.. ولكنه - لحكمة يريدها اللَّه سبحانه - يحمل وجهًا آخر، فهو أشبه بأجراس الإنذار التي تقرع بعنف لكي يسمعها الجميع، ويعيدوا النظر في حساباتهم، فلعلهم يرجعون إلى اللَّه سبحانه.. وإلى الحق.. وإلى الصراط الذي مرقوا عنه فتفرقت بهم السبل، وقادتهم إلى هذا الذي يحدث الآن، والذي ينذر بالمزيد من تضييق الخناق.

إلى عهد ليس ببعيد كان الغربيون ملتزمين بما يمكن تسميته الأخلاق العملية، وهي ليست تلك المنبثقة عن الدين، وإنما عن تنامي الخبرة الاجتماعية والاتفاق عليها لتحقيق مصلحة أو منفعة ما.. فكان إخلاصهم في العمل، وصدقهم في المواعيد، وإتقانهم صناعة الأشياء.. إلخ يضرب به المثل.. وكنا في خمسينيات القرن الماضي نهرع إلى المصنوعات الغربية فنتهافت على شرائها بسبب الجهد المخلص الذي بذل في إنتاجها، والذي لم يخترقه التدليس والغش بأية نسبة على الإطلاق. أما اليوم فإن الأمر يختلف حيث تساوت البضاعة، شرقية كانت أم غربية، وأصبح الغربيون يعتمدون مبدأ الربح السريع، والعمر القصير للبضاعة كي يلجئوا المستهلك إلى المزيد من الشراء.

والرشوة كانت من المحرمات، ولم نستمع يومها على الإطلاق بأن حكومة غربية، أو وزيرًا، أو مسؤولًا، أو مؤسسة، أو شركة، تعاملت بالرشوة لترويج بضاعتها.. ومنذ فضيحة شركة (لوكهيد) للطيران في أخريات القرن الماضي، اخترقت الرشوة عصب الإدارات والمؤسسات الغربية، وأصبحت أمرًا شائعًا، تمامًا كما هو الحال في الدول المتخلفة أو النامية..

أما التلوث الأخلاقي في حدوده (الجنسية) فحدّث ولا حرج.. لقد انتشرت العلاقات المثلية في ديار الغرب كالسرطان وأصبحت بمرور الوقت تمثل ضغوطًا متزايدة أرغمت البرلمانات والحكومات والأحزاب، بل وحتى الكنائس، على قبولها وإباحتها.. ومضى السرطان لكي يفترس الأخضر واليابس.. وبرزت ظاهرة اغتصاب الطفولة وتسخير الأطفال للربح الأسود الحرام.. والأرقام مخيفة، وهي في تزايد مستمر، ويكفي أن نلقي نظرة على صفحات المجلات وأعمدة الصحف لكي نرى العجب العجاب.

والجريمة المنظمة يزداد سعارها.. والإقبال على المسكرات والمخدرات والمغيبات ينذر بالويل.. والشركات المنتجة تتبارى في ابتكار المزيد.. وحالات الكآبة التي تأخذ بخناق الناس هناك، والتي يقود بعضها إلى

الانتحار هروبًا من الحياة، في تزايد مخيف هي الأخرى..

ثم ماذا نقول في التلوّث السياسي الذي يبيح للدول الكبرى أن تعتمد جبروت القوة لسحق الأمم والشعوب المستضعفة، وامتصاص دمها وثروتها، بعيدًا عن منظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية؟

وماذا نقول في التلوث الفكري الذي تمثل بعض تيارات الحداثة جانبًا من يحتّم وجوهه النكدة التي تطل على الدنيا بين الحين والحين.. إن التفكيكية – مثلًا – تدعو إلى موت الإله ونفي الدين من الحياة، واعتبار القيم الخلقية أمرًا رجعيًّا.. وتتخذ من كتابات الفيلسوف الألماني المعتوه (نيتشه) إنجيلًا لها.. وهو الذي انتهى به الأمر لكي يموت وحيدًا في مصحة لمرضى العقول؟

التلوث في كل مكان.. وكل اتجاه.. وما لم ينزل الدين بكل ثقله لتغيير معادلة الحياة البشرية وإعادتها إلى وضعها المتوازن، فإن كارثة أخرى ستحل بالعالم.. وصدق اللَّه العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[الروم: ٤١].

* * *
* *
*

القراءة بعين واحدة

من الأقوال المعروفة لموشى دايان، وزير دفاع العدو الإسرائيلي السابق أن (العرب لا يقرؤون)، ولعل في ذلك بعض المبالغة، وقد تكون عبارة (القراءة بعين واحدة) أكثر دقة.

ولقد عانى الكثير من كتابنا الأذى وسوء الفهم من جرّاء تعامل الدارسين والنقاد مع أعمالهم بعين واحدة.. ولم أنج شخصيًّا من ذلك رغم حذري الشديد ودعوتي المتواصلة لمبدأ (هذا وذاك) وليس (إما هذا أو ذاك)، وتأكيدي على ضرورة إدارة الكاميرا على الحالة موضوع الدرس من أطرافها كافة لكي يكون الاستنتاج أكثر دقة وإحكامًا.

في كتابي: (التفسير الإسلامي للتاريخ) خصصت صفحات للحديث عن الصراع، وهو مفهوم مؤكد في كتاب اللّٰه وفي نسيج معطياته عن قوانين الحركة التاريخية، ورغم أنني - بالمقابل - أعطيت مساحات أوسع لمفهوم (التوافق) من أجل تقديم الصورة بجانبيها، فقد اتهمني أحدهم بأنني من دعاة (الهيغلية) والصراع بين الأضداد.

ولأنني أنجزت عددًا من كتب التراجم من مثل: (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) و (عماد

الدين زنكي) و (نور الدين محمود) فقد حكم عليَّ باحث آخر بأنني من دعاة مفهوم (البطل في التاريخ) رغم أنني كنت أؤكد دائمًا على قطبَي الحركة التاريخية: البطل والجمهور ودورهما المشترك في صيرورتها.

وقال آخر من المعنيين بالهم الأدبي - وقد قرأ بحثًا لي عن (وظيفة الأدب) - بأنني من دعاة (المضمونية) رغم أن معظم كتاباتي التنظيرية والنقدية ترمي بثقلها باتجاه الجانب الفني أو الجمالي باعتباره ضرورة أساسية في عملية الإبداع الأدبي، وإلَّا فهي المعاني الملقاة على قارعة الطريق كما يقول الجاحظ.

وغير هؤلاء كثيرون اكتفَوا بقراءة جوانب محدودة من كتاباتي المتواضعة ثم أصدروا حكمهم على صاحبها.

ونحن كمسلمين نعرف بداهة أن اللَّه - سبحانه - كتب الإحسان في كل شيء، كما حدّث رسول اللَّه ﷺ، وأن اللَّه يحب إذا عمل أحدنا عملًا أن يتقنه كما قال رسول اللَّه ﷺ كذلك.

وطالما قرأنا في كتاب اللَّه دعوة مؤكدة لالتزام العدل والموضوعية في إصدار الأحكام: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. بل إننا نقرأ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وهي دعوة للعدل حتى مع الخصوم والأعداء، فكيف إذا كان الحال بين بعضنا والبعض الآخر؟

ومن حيث أدرنا المنظور وجدنا الخطاب الديني ومنطق الأشياء تتطلب ألّا نصدر حكمًا على مسألة ما إلَّا بعد الاطلاع على حيثياتها كافة، فإذا ما أردنا أن نقيّم عمل مؤلف ما، أو حتى جانبًا من أعماله، فإنه يتحتم علينا إذا أردنا أن نكون موضوعيين وعادلين في الوقت نفسه، أن نقرأ كل ما قدمه المؤلف بخصوص هذه المسألة أو تلك، وإلَّا كان حكمنا أو تقييمنا ناقصًا ومبتسرًا، وقد يكون خاطئًا من أساسه.

لا بدّ من القراءة المتأنية المستقصية التي تتابع المفردات كافة، وتدير الكاميرا على وجوه وملامح الظاهرة موضوعة البحث من زواياها كافة. وسواء أكان هذا الموقف الخاطئ سببه التسرّع، أم الكسل العقلي، أم كان متعمدًا مقصودًا، فالأمر سواء، وهو ذهاب هذا المؤلف أو ذاك ضحية الآخرين.

ونحن في الدائرة الإسلامية أحوج من غيرنا وألزم بمفردات أدب النقد والحوار، وبمطالب الإتقان والإحسان في الأداء.. وبأن نتحاشى الأحكام غير العادلة ما وسعنا الجهد.. وألا ينفي أحدنا الآخر، بل يعضده ويتمم المشوار الذي بدأه.. فإذا أخذ عليه شيئًا فبضوابط أدب الخلاف، وبالمحبة والإيثار، لا الأثرة والكراهية، والرغبة المعلنة

أو المستترة في إبراز أخطاء الآخرين وعيوبهم.

ولمن يريد التأكد من الجانب السلبي للصورة، ما عليه إلّا أن يتابع بعض أنماط المناقشين في الندوات والمؤتمرات.. إنهم - باختصار شديد - لا يسعون بالتعاون مع المحاضر لتأكيد « الحقيقة » وإنما يبحرون ضد المحاضر لتأكيد « الذات ».. ويغادر الأخير المحاضرة أو الندوة وقد أثخنته سيوف المناقشين وسكاكينهم بدل أن يتلقى نصحهم وتقويمهم المنبعث من معين التجرد والإخلاص..

فلا حول ولا قوة إلَّا باللَّه..

* * *
* *
*

معادلة الحياة الدائمة

دائمًا.. دائمًا.. دائمًا.. وعلى مرّ السنين والعقود والقرون، وعبر قارات الدنيا الست.. نجد المستقيم والمعوج.. الملتزم والمنحل.. المؤمن والكافر.. جنبًا إلى جنب.. لم يخل من أي منهما زمن أو مكان!

قد تجنح المعادلة.. وهي جانحة بالفعل في معظم الأحيان.. لأن أكثر الناس للحق كارهون، كما يؤكد القرآن الكريم، بسبب من تركيبهم الآدمي، ولأن الانسحاب إلى الأسفل أيسر كثيرًا من محاولة الصعود إلى أعلى، فضلًا عن أن الهبوط محفوف بالشهوات، بينما الصعود محمّل بالتكاليف!

ومع ذلك، لم يخل زمن أو مكان من النمطين معًا.. بل قد يكون وجود النمط الأول وانتشاره السرطاني محفزًا، أو تحديًا، يدفع النمط الثاني إلى التجذر والانتشار، وإلى بذل جهود مستميتة لأن يجد مكانه على خارطتي الزمن والمكان..

وتلك هي الموازين الإلهية العادلة والدقيقة والمحكمة، والتي توزع النسب والمساحات في كل شأن من شؤون الحياة الدنيا، بما يمنع من طغيان نهائي لجانب على جانب،

واستئثاره بحكم الحياة، واحتكاره للمصائر والمقدرات.. وبما يمنح الحياة القدرة على التغاير والتنوع والاختلاف والتدافع والاصطراع، فيما يبعدها عن السكون والفساد، ويفجر فيها عناصر التجدّد والإبداع.

ومنذ اللحظات الأولى للخليقة أريد للإنسان أن يصارع خصمًا لدودًا قدّر له ألّا يكف لحظة عن ملاحقة الإنسان، ومحاولة جرّه إلى الأسفل، ذلك هو الشيطان.

ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن أن اللّه سبحانه لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، ربما للأسباب التي ألمحنا إليها.. وأعطانا في آيات ثلاث الأبعاد الحقيقية لحركية الحياة البشرية والتاريخ الإنساني.. إنها سنن التغاير والتدافع والتداول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولم يحدث يومًا أن خلت الأرض من مؤمن أو كافر.. إنهما موجودان أبدًا، كوجود النهار والليل.. والنور والظلمة..

والظل والحرور.. وكلما جنحت المعادلة للاختلال الكبير الذي يجاوز حدوده المعقولة، بعث اللّه - سبحانه - رسولًا من رسله أو نبيًّا من أنبيائه الكرام - عليهم السلام - أو دفع زعيمًا من الزعماء أو مصلحًا من المصلحين على رأس كل مائة، لكي يحق الحق، ويعيد الميزان إلى وضعه المعقول.

وما لنا نذهب بعيدًا، وما نراه ونسمعه في لحظتنا التاريخية الراهنة يغني عن المزيد؟ فاليوم تمارس قوى التفكيك والانحلال دورًا أسطوريًّا لنشر العهر والفساد بأنماطه التي لم تخطر من قبل على بال إنسان.. اليوم ينتشر الفساد الأكبر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.. اليوم تمارس الأجهزة الإعلامية والمعلوماتية دورًا هائلًا في تلبية نداءات الشيطان وسحب المجتمعات البشرية إلى القعر..

ومع ذلك، بل ربما بسبب ذلك، نشهد اليوم انفجارًا أسطوريًّا لصحوة مباركة غطت السهل والجبل، فيما لم يكد التاريخ البشري يشهد له مثيلًا.. وعبر قارات الدنيا الست ينتشر أبناء الصحوة بطهرهم ونظافتهم وتوحّدهم والتزامهم ووجوههم النضرة وأيديهم المتوضئة، لكي يحموا إنسانية الإنسان من الدمار، ولكي يحققوا التوازن المطلوب بين الخير والشر، ويعيدوا المعادلة إلى وضعها المعقول.

فلا يهولننا الأمر ونحن نجد الملايين من ممارسي

الخطايا ومشاهدي الأفلام والعروض الداعرة.. فإننا نلحظ بموازاتهم تمامًا ملايين من الأطهار وعشاق النور والنظافة، الملتزمين بكلمة اللَّه، والحارسين لإنسانية الإنسان.

ويخطر على بالي من بين عشرات الشواهد ومئاتها كيف أننا في خمسينيات القرن الماضي، كنا ندلف ونحن صبيان إلى المساجد فلا نكاد نجد خلف الإمام في كل مسجد سوى عشرة أو عشرين من المصلين، ومعظمهم ممّن تجاوز الستين أو السبعين من العمر.. وكيف أننا الآن، في مطالع القرن الجديد، ندخل المساجد فلا نكاد نجد فيها مكانًا!!

التحلل والالتزام.. الهدم والبناء.. الحيوانية والإنسانية.. والكفر والإيمان.. دائمًا.. دائمًا.. دائمًا.. تلك هي سنة اللَّه في الخلق منذ لحظات الخلق الأولى.. ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *
* *
*

هذا.. وذاك

في حوار بين (قسّ) وبطل الرواية الوثني، في الفصل قبل الأخير من رواية الأديب الأمريكي (جون شتاينبك): (البحث عن إله مجهول)، نلتقي للمرة العشرين بالرؤية الغربية الأحادية التي تخضع لمبدأ: (إما هذا أو ذاك).. إما الأرض وإما السماء.. إما الروح وإما الجسد.. إما الدنيا وإما الآخرة.. إلى آخره..

بينما تنبني رؤيتنا الإسلامية للحياة والوجود والمصير على مبدأ (هذا وذاك).. الأرض والسماء معًا.. الروح والجسد معًا.. الدنيا والآخرة معًا..

القسّ في الحوار المذكور يريدها للسماء.. للروح.. حيث تصبح الأرض منفى، والجسد بؤرة للشر.. ويريدها الوثني للأرض.. للجسد.. فالسماء بعيدة، صعبة المنال، وقد لا يكون لها وجود.. والروح مسألة غائمة لا يسلّم بها بسهولة.. فليكن التعامل مع القريب الموجود وليس مع الغائم البعيد.

وبهذا حفر الغربيون خندقًا بين طرفين أريد لهما منذ لحظات الخلق والهبوط الأولى أن يلتقيا ويلتحما ويتوحدا.. لا أن يتضادا ويتخاصما، فيكون الفصام النكد الذي ألحق

بالحياة والإنسان شروخًا لا مبرّر لها، وقادها إلى أن يدير أحد القطبين ظهره للآخر، فيمضي أحدهما متشبثًا بالسماء، ويخلد الآخر إلى الأرض، ويلتصق بها.

ومنذ لحظات هبوط آدم إلى الأرض.. آدم الذي التقت في تكوينه نفخة الروح العلوية بالتراب.. تلقّى وعدًا من السماء بإمداده بكلمات اللَّه سبحانه، أي بالدين والمنهج اللذين أريد لهما أن يتوليا تصميم الحياة الدنيا ورسم خرائطها، وإلَّا فهو الضياع.. والضرب في التيه.

وجاء مسلسل النبوات الطويل يؤكد المعنى نفسه، ويعيد تعديل الوقفة الجانحة لمسيرة الجماعات والشعوب كلما انحرفت بأديانها عن الصراط.. ثم كانت الحلقة الأخيرة بمجيء الإسلام لكي يختم على حركة النبوة ويضع اللمسات الأخيرة في المنهج الذي قدّر له أن يكتمل على يدي رسول اللَّه ﷺ.

فنحن - إذن - إزاء رؤية أصيلة واضحة المعالم والخطوط تنطوي في أساسها على لقاء حميم بين السماء والأرض.. تلك تأخذ بيد هذه، وهذه تتطلع إلى تلك وتتلقى التعاليم منها.. وتتحقق بذلك الحياة السعيدة المتوحدة الآمنة المطمئنة التي يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان..

الغربيون لا يريدونها هكذا.. إنهم، ربما لأسباب تاريخية

لا يتسع لسردها مقال كهذا، آثروا أن يفكوا ارتباطهم بالسماء، وأن يغيّبوا الروح، ليس من دائرة ممارساتهم فحسب، بل من قناعاتهم أيضًا.. وهكذا أخلدوا إلى الأرض، والتصقوا بالجسد، وجعلوا منهما قطب الرحى وحجر الزاوية في مسيرة الحياة الدنيا.

اللقاء بين القطبين - إذن - هو القاعدة التي أريد لها أن تحكم الحياة البشرية، وفك الارتباط بينهما هو الاستثناء الذي لا يقاس عليه، رغم أنه يغطي اليوم مساحات واسعة من الدنيا، ويغطي عليه في الوقت نفسه التفوق الظاهر للحضارة الغربية التي انبثقت عنه وانبنت عليه.

وبعيدًا عن بهرج الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها.. بعيدًا عن الديكورات الجميلة المتألقة لتلك الحضارة.. بعيدًا عن مظاهر القوة والجبروت فيها.. فإن الإنسان نفسه هناك، ليس بسعيد.. تحاصره التعاسات والمنغصات، وتدفعه دفعًا إلى الهروب بالمخدرات والمغيبات والحشيش والأفيون حينًا.. وباللجوء إلى الانتحار حينًا آخر.. وتضيق عليه الخناق بالكآبة التي تمسك بتلابيبه صباح مساء..

وحلقة البلاء الأولى.. تبدأ دائمًا من هناك، ويعكسها ذلك الحوار الذي أداره (شتاينبك) بين القسّ وبطله الوثني: إما السماء وإما الأرض.. إما الروح وإما الجسد..

وكأن ليس ثمة طريق آخر تتوحد فيه هذه الأقطاب وتتصالح من أجل الإنسان.

* * *
* *
*

العلمانية.. محاولة لعزل الإسلام

إحدى ألاعيب العلمانيين التي تدعو للسخرية، أنهم يبدون عطفهم الزائد على الإسلام فيعلنون حينًا بعد حين أنه دين مقدّس يجب ألّا يتورط أو يقحم في السياسة لأنها دنَس.. وفي الاقتصاد لأنه منافع صرفة، وفي العلم لأنه عرضة للتغيّر، بينما الدين يقوم على جملة من الثوابت والمطلقات.

والهدف واضح لا يخفى على أحد: إنه محاولة محمومة لعزل الإسلام عن الحياة وتحجيمه، واعتقاله في المساجد ودور العبادة، وتحويله إلى مجرد دين شعائري طقوسي، أو مؤسسة إكليروسية على غرار المسيحية.

إنهم يرددون: كيف تقحمون القرآن في العلم، وهذا متغير وذاك ثابت؟ وكيف تنادون بأسلمة المعرفة والمعرفة لا تخضع للقوالب الدينية، وكيف يكون هناك أدب إسلامي والأدب يرفض أن يمسك به قيد، وكيف يلتقي الدين مع السياسة، وهو منظومة من القيم الخلقية والسياسة لا خَلَاقَ لها؟

والهدف - مرة أخرى - واضح: عزل الإسلام، ودفعه إلى زوايا المساجد والخانقاهات..

ولطالما خاطب العلمانيون المؤمنين (وأنا أعني ما

أقول لأن جلّ العلمانيين ليسوا مؤمنين حتى ولو ادعوا ذلك بسبب من إنكارهم لمعلوم من الدين بالضرورة) محاولين إقناعهم بأن الدين أغلى وأكثر قدسية من أن ينزل إلى دنس السياسة فيلطخ ثوبه، وكثبان الكشف العلمي المتنقلة فيفقد مصداقيته، ومنفعية التعامل الاقتصادي فيضيع!!

ولكن.. إذا كان من مقتضيات الإيمان تنفيذ كلمة اللّه في العالم، وتنزيل منهجه في الأرض، فهل يكون مؤمنًا جادًّا صادقًا مع عقيدته ونفسه من لا يتوسل بما أتيح له من أسباب السياسة والعلم والاقتصاد والكلمة لتحقيق هذا الهدف العزيز ؟ وهل كان بمقدور الفلاسفة والمفكرين أنفسهم، أولئك الذين أنيطت بهم مهمة تنزيل أفكارهم في واقع الحياة، أن ينفصلوا عن أدوات التنفيذ وآلياته، وأن يظلوا معلقين في سموات المثل والنظريات؟

إن الدعوة إلى عدم تسييس الدين تعكس جهل القائلين بها بالدين والسياسة معًا.. ومثلها الدعوة إلى عدم توظيف العلم لتأكيد الدين، فهي الأخرى جهل بالعلم والدين.. وقل مثل ذلك بالنسبة لكل الفعاليات الأخرى التي جاء الدين لكي يلتحم بها ويوظفها لتحقيق أهدافه.

والآن: فإن النقطة أو الزاوية التي يفضل أن ينطلق منها الجدل بين الطرفين تنحصر في السؤال التالي: أيهما أقدر

على إعادة صياغة الحياة بما يلائم الإنسان والبشرية: اللَّه أم الإنسان؟

لا أعتقد أن أحدًا يملك ذرة من إيمان يقول بأن الإنسان هو الأقدر.. ربما يكون من حق الماديين والكفار أن يقولوها لأنهم لا يؤمنون - أساسًا - باللَّه، أما العلمانيون الذين يدعون الإيمان باللَّه وبالأديان، فإنهم سيناقضون أنفسهم منذ اللحظة الأولى؛ إذ يضعونها في معادلة معكوسة تقودهم إلى خانة الكفر شاؤوا أم أبوا.

الآن وقد تبين لكل ذي عينين، عبر مجرى التاريخ البشري، تساقط المذاهب والنظم البشرية، الواحد تلو الآخر، الآن والبشرية تجد نفسها في طريق مسدود، لن يكون سوى الدين مركب الإنقاذ.

ويقينًا فإن الإسلام سيمارس دوره في إعادة صياغة المصير البشري، رضي العلمانيون أم سخطوا، فهو ليس دينًا كالأديان لا يتعامل سوى مع الروح والأخلاق، ولكنه برنامج عمل يعرف كيف يتعاطى مع مطالب الحياة كافة، بما يقودها إلى برّ الأمان: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويتذكر المرء هنا عبارة مضللة طالما ردّدها العلمانيون:

« الدين لله والوطن للجميع »، والتي تعني سحب يد اللَّه سبحانه وحاشاه عن تنظيم الحياة وترك المهمة للطواغيت والأدعياء والأرباب..

وبدلًا من ذلك.. ومن أجل تعديل المقولة الخاطئة علينا أن نقول: « الوطن لله والدين للجميع »..

فاللَّه سبحانه هو الأولى بتنظيم الحياة في أوطان الناس جميعًا.. وتحت ظلال هذا التنظيم يمكن أن ينتمي الناس إلى أي دين أو عقيدة يشاؤون إذ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بعد إذ تبيّن الرشد من الغيّ.

* * *
* *
*

محاولات لتفكيك الدولة

يعاني العقل الوضعي من إشكالية منهجية تقوم على قاعدة خاطئة أحادية الجانب هي « إما هذا أو ذاك ».. إما الفردية وإما الجماعية.. إما الرأسمالية وإما الشيوعية.. إما القومية العدوانية (الشوفينية) وإما الأممية التي تلغي الخصائص القومية.. إما ملكية الدولة وإما تسليم المقدّرات للقطاع الخاص وطبقة الرأسماليين.

ولقد منحنا الإسلام منهجًا وسطًا يقوم على قاعدة « هذا وذاك » حيث يتم التأكيد على جوانب الظاهرة كافة.. وهكذا، وبقدر تعلّق الأمر بالنشاط الاقتصادي فإن الإسلام في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ومعطياته الفقهية الخصبة، أعطى الاهتمام نفسه للملكيتين الخاصة والعامة على السواء. ونحن نقرأ في كتاب اللَّه - على سبيل المثال - ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ونستمع إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يقول: « **من قاتل دون ماله فقتل فهو شهيد** » [أخرجه النسائي] و « **إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم في المدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد**

ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم مني وأنا منهم » [متفق عليه].. والآيات والأحاديث كثيرة في السياقين معًا.

ولذا وجب، لدى أية محاولة للبرمجة لمستقبل الاقتصاد في ديارنا الإسلامية، ألّا نندفع باتجاه ردود الأفعال فنعتمد الخصخصة ونلغي القطاع العام، أو بالعكس، فيما يجرّ على النشاط الاقتصادي والشعوب الإسلامية الكثير من المتاعب والخسائر والويلات.

إن المتغيّرات التي شهدها العالم عبر ربع القرن الأخير، بتشكل النظام الدولي الجديد ذي القطبية الأحادية؛ حيث تمسك الولايات المتحدة الأمريكية بمصائر ومقدرات الأمم والشعوب، وما رافق ذلك من تصاعد وتائر (العولمة) وانفجار المعلوماتية والإعلامية.. هذه كلها قادت إلى اختراق سهل لبنية « الدولة » في العالم الثالث في السياقات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية.. الأمر الذي قد يعرّضها إلى واحدة من أشدّ عمليات التفكيك ضراوة وعنفًا، والتي قد تأتي ليس فقط على استقلالها وإنما على وجودها كذلك.

في ضوء ذلك قد يكون تشجيع الخصخصة ومصادرة وإلغاء القطاع العام، فرصة مضافة للنظام الدولي الجديد لتحقيق أهدافه في الاختراق والتفكيك.. وتصبح حماية

القطاع العام من التآكل والاندثار ضرورة من ضرورات حماية هيكليات دول العالم الثالث نفسها من التفكيك والاحتواء.

* * *

* *

*

في ضرورة الاستمرار

لم يكن (الغزالي) آخر من كتب في (إحياء علوم الدين)، ولم يكن (مالك بن نبي) الوحيد الذي تحدث عن هندسة الفكر الإسلامي بمواجهة الغزو الثقافي للحضارة الغربية الغالبة، ولن يكون (النورسي) متفردًا في ساحة الرؤية الإسلامية الكونية للحياة، تلك التي تلمّ في كل متوحد: الظاهر والباطن، والعقل والروح، والعلم والوجدان. ولن يكون (إقبال) آخر شاعر وفيلسوف يتحدث عن الذات الإسلامية في مواجهة نداءات العالم وتحديات الفناء.. و (محمد أسد) (ليوبولد فايس) لن يكون أول ولا آخر من كتب عن الكيفية التي يعتنق بها الغربي التائه: الإسلام، ولماذا؟ وهكذا يقال عن سيد قطب ومحمد قطب ومحمد الغزالي والقرضاوي والعلواني والبوطي ومحمد البهي ومحمد عمارة والندوي والمودودي وأبو سليمان وعبد المجيد النجار والغنوشي.. وخط طويل من الباحثين والمفكرين الإسلاميين لا يتسع المجال لذكرهم.

ففي طريق الفكر الإسلامي ثمة - دائمًا - الأتباع والطلبة والمريدون.. ثمة - أبدًا - من يتلقى الإشارة ويواصل الطريق مضيفًا مبدعًا ومجتهدًا..

إن كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ في عقولنا وقلوبنا جميعًا، ولن نكون أبناء الإسلام بحق إن سمحنا للعقد الفريد أن تنفرط حباته وللسلسلة المباركة أن تتفكك وتضيع..

فمن يدل الأجيال تلو الأجيال على معالم الطريق؟ من يأخذ بأيديهم إلى اللَّه؟ من؟

إنها مسؤوليتنا جميعًا، ولن يعذر منها أحد دون أحد.. وهي فرض عين على كل من يحمل القلم.. أن يؤدي الأمانة، وأن يحمل الخطاب الإسلامي إلى سمع العالم وعقله ووجدانه، داخل ديار الإسلام وخارجها، وكل بما يسّره اللَّه له.

ونحن نشهد - بالفعل - عبر العقود الأخيرة، تدفقًا مدهشًا للكتاب الإسلامي.. وأصبحت المكتبات الخاصة والعامة تنوء رفوفها بهذا الكتاب الذي مضى أصحابه يعالجون شتى القضايا والمشاكل والظواهر والحالات.. يلاحقون المستجدات، ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة ويستجيبون للتحديات..

ما من جانب من جوانب الفكر والحياة إلَّا وأدلوا بأقلامهم فيه وقالوا كلمتهم..

إنها ظاهرة فريدة تبشر بالخير الوفير، وتعد بالعطاء الخصب، ما شهدها مذهب من المذاهب أو دين من

الأديان.. وزادها عطاءً وخصبًا ما يمكن اعتباره انفجارًا في الدراسات العليا التي راحت تغذي المكتبة الإسلامية بسيل من الرسائل والأطروحات التي تعالج برؤية تخصصية فاحصة مدققة، هذه الجزئية أو تلك، وهذه الظاهرة أو تلك، في مساحات الفكر والحياة الإسلامية.. ولكن!!

ثمة ما يجب أن يقال.. أن ينبّه عليه.. وقفة لمراجعة الحساب، إذا صحّ التعبير، فإن هذا السيل المتدفق للكتاب الإسلامي ينطوي على الكم والنوع، وما دام أن جهدًا ما، بدرجة أو أخرى، قد بذل في إنجاز كل كتاب، أفلا يتحتم أن نتجاوز التكرار، ومعالجة الموضوع الواحد عشرات المرات وربما مئاتها؟ ألا يعد هذا نوعًا من الهدر في الطاقة التي نحن بأمسّ الحاجة إلى ادّخارها لتقديم شيء جديد؟

هذه واحدة.. والأخرى أن من بين هذا الكثير الذي يكتب، مساحات واسعة.. واسعة جدًّا.. لا تنطوي على أي تصميم فكري ذي غناء، أو كشف يقدم جديدًا للعقل المسلم والمكتبة الإسلامية، أسوة بما قدمه الرواد الذين ألمحنا إليهم.. ألا تعد التعميمات الإنشائية نوعًا من التضييع والهدر هي الأخرى.. هدر مزدوج للمؤلفين والقراء على السواء؟

ويتمنى المرء، فيما يتمناه، أن لو تكون هناك لجنة أو هيئة ثقافية عليا تنضوي تحت لواء واحدة من المؤسسات

الإسلامية الكبرى يلجأ إليها المؤلفون، وحتى طلبة الدراسات العليا، لكي ترشدهم إلى الموضوعات التي تستحق الجهد، وتحذّرهم - في الوقت نفسه - من تضييع وقتهم ووقت القراء فيما لا جدوى منه ولا غناء فيه من الموضوعات المكرورة والإنشائيات التي يسمع لها جعجعة ولا يرى لها طحين!

* * *
* *
*

التشييع والرؤية الأخرى للحياة الدنيا

تجربة التشييع إلى القبر ذات خصوصية مؤثرة لمن يعرف كيف يتجاوز المنظور إلى ما وراءه.. ولقوة الإيحاءات والمرئيات التي تقدمها يدعو رسول اللّه ﷺ أتباعه إلى المشاركة في تشييع الجنائز، وزيارة القبور!

في تجربة التشييع عند القبر تبدو المدينة.. والعمران.. والأشياء.. والحياة الدنيا نفسها حلمًا عابرًا.. شيئًا مسطحًا غير حقيقي.. لا عمق له ولا وجود.. شيئًا سريع التبّدل والتغيّر والزوال.

إننا عندما نشاهد حلمًا مهوّشًا، لا تستقر فيه الأشياء والخبرات على حال، ولا تتأكد عبره النسب والأبعاد.. ثم نستيقظ فنجد أنفسنا قبالة صلابة الأشياء والمرئيات وثباتها، نكون قد انتقلنا من حالة مهوّشة، ضبابية، كثبانية التكوين، متحركة، متميعة، غير ثابتة.. إلى حالة صلبة، ثابتة محددة الملامح والأبعاد، مستقرة النسب والمساحات.

أفلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي الحلم، والموت هو اليقظة التي تنقلنا إلى الوضع الأكثر ثباتًا ودوامًا بما لا يقبل قياسًا؟

ولطالما تساءل المرء، وهو يقف على حافات القبور،

في المسافة الضيقة الفاصلة بين الحياة والموت، بين الدنيا والآخرة.. أتستحق الدنيا بوضعها هذا، بتهويشها، وتغيرها السريع، وزوالها المفاجئ.. هذا التكالب الذي يتجاوز كل حد، والذي يسعى فيه الإنسان إلى أن ينشب أظفاره فيها، رغم أن يديه ستسحبان بقوة من الكتلة، شاء أم أبى، ورغم أنه سينفى منها، بعد عشر سنوات أو عشرين، وربما بعد ساعة أو ساعتين، لكي يلقى وحيدًا، أعزلًا، في حفرة ضيقة، بعيدًا عن المدينة والناس والحركة والحياة، بعد أن يكون قد عاش مدة من الزمن لا تتجاوز نصف عمر السلاحف وعشر عمر التماسيح؟

ولطالما تساءل كذلك: ماذا لو لم تكن هناك هذه النهاية لحياة كل إنسان؟ ماذا لو كتب له الخلود؟ أو في الأقل ماذا لو امتدت به الحياة إلى الألف سنة أو الألفين؟! ماذا سيحدث؟ وكيف سيكون فراقها مرًّا كالعلقم، وكيف سيكون إنشاب الأظفار ليس في الكتل والأشياء فحسب، بل في لحوم وأرواح بعضنا بعضًا.. وكيف ستغدو الحياة البشرية على امتدادها في الزمن شيئًا قاسيًا صعبًا مستحيلًا لا يستحق أن يعاش، ولا أن يتمناه إنسان..

ثم كيف كان الطاغوت سيتصرف في تعامله مع السلطة والناس والحياة، إذا كانت فترة الثلاثين سنة والأربعين

تدفعه دفعًا إلى أبشع صيغ الأنانية والاستلاب والاستئثار وإلغاء الآخر.. والطغيان؟ فكيف لو كانت فرصته ممتدة على مساحة ألف سنة أو ألفين؟

إنها حكمة اللَّه سبحانه، وموازينه العادلة الدقيقة، تلك التي حددت فرصة الحياة الدنيا بستين أو سبعين عامًا في أفضل الأحوال.. أليس سبحانه هو القائل في محكم كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وهو جل في علاه أدرى بخلقه، ولهذا حدّد أعمارهم، وكتب عليهم الموت، وحصرهم في هذا المدى الزمني الضيّق.. الضيّق جدًّا..

وإلَّا استحالت الحياة الدنيا غابة تعدو فيها الضواري البشرية ويمزق بعضها أجساد البعض الآخر بالمخالب والأنياب..

حياة لا تستحق أن تعاش على الإطلاق..

* * *
* *
*

أدوار ثلاثة

هناك أدوار، أو طبقات ثلاث، لتأكيد الإيمان والتعبير عن مطالبه ومقتضياته: طبقة القناعات العقلية، وطبقة القناعات القلبية والوجدانية، وطبقة التنفيذ العملي السلوكي للقناعات الإيمانية في واقع الحياة اليومية، ومن ثم التحقق بالتوحد بين العقل والقلب والسلوك.

ومشكلتنا في كثير من الأحيان أننا نملك القناعات العقلية، بل إنها ربما تضخمت أكثر مما يجب على حساب الطبقتين الثانية والثالثة.. وأحيانًا أخرى تطغى القناعات القلبية على حساب العقل، وفي الحالتين لا نكاد نلحظ انعكاسًا صادقًا وأمينًا على الواقع العملي والسلوك، الأمر الذي يمثل جوهر مأساة العديد من المسلمين في العصر الحديث.

ورغم أن الدين المعاملة، كما يحدثنا رسول اللّه ﷺ، ورغم أن المسلم الحق، كما يؤكد الرسول أيضًا، يتميز بالسماحة إذا باع وإذا اشترى، فإننا نجد الكثير من الناس يشتكون من سوء معاملة إخوانهم من الذين لا تفوتهم صلاة. حتى لقد أصبح هذا أشبه بالوصمة التي يوصم بها بعض البائعين من المسلمين الملتزمين.. بل إن بعض المتشككين والكسالى يذهب إلى حدّ القول: علام أصلّي إذا كان بعض

المصلين أنفسهم لا تأخذهم بالذين يتعاملون معهم رحمة أو شفقة؟!

أي التزام هذا والخندق عميق بين قناعات الإيمان العقلية والقلبية، وبين واقع السلوك اليومي في التعامل بين الناس؟

إنها مفارقة محزنة والحق يقال، وإذا أردنا أن تكون حياتنا إسلامية حقًّا، إذا أردنا ألّا نغضب اللَّه ورسوله ﷺ ونحن نجتاز رحلتنا اليومية عبر الحياة، ويلتقي بعضنا بعضًا، ويتعامل بعضنا مع البعض الآخر، فإن أول خطوة يتحتم علينا أن نخطوها، هي ردم الخندق، وتدارك الفجوة، وإعادة التوحد بين العقل والقلب والسلوك.

ولعل هذه بالذات هي أحد أهم عوامل انكسارنا الحضاري، ولعلها السبب الأكثر أهمية في تحوّل أمتنا إلى قصعة يتداعى عليها الجائعون من كل مكان، كما سبق وأن أنبأ به رسول اللَّه ﷺ.

إن الإيمان - بداهة - ليس مجرد قناعة يقبلها العقل ويسلّم بها، كما أنها ليست مجرد يقين أو تسليم قلبي بمفردات الإيمان.. إنها، إلى جانب هذا وذاك، جهد موصول، أو جهاد كبير، بتعبير الرسول ﷺ لملاحقة كل ما من شأنه أن يصدّ هذه القناعات عن التحقق في واقع الحياة السلوكية للمسلم، ويحفر خندقًا بين العقل والقلب والممارسة!

ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن أن اللّه سبحانه ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وأنه سبحانه ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] هذا التغيير المكافح الذي يسعى جاهدًا للحفاظ على التوحد والالتحام بين العقل والقلب والسلوك.

إن المسلم الجاد مشروع يومي مفتوح للتسامي والصعود.. وإن ثمة محطات أربع تنتظره، وتتطلب منه أن يشحذ همته لاجتيازها جميعًا في رحلة العمر: الإسلام.. الإيمان.. التقوى.. وصولًا إلى المحطة القمة: الإحسان الذي يضعه قبالة الحضور الإلهي المؤثر، ويدفعه إلى الإبداع والإتقان في كل ما يمارسه من أعمال..

ولن يتحقق ذلك إلَّا بأن تكون نقطة الانطلاق متمركزة عند الحالة التي يتوحد فيها المسلم عقلًا وقلبًا وسلوكًا.. وإلَّا فإن ألف سنة من الجهد اليومي لن تقربه خطوة واحدة من المطلوب، ولن تمكنه من اجتياز المحطات الأربع التي تنتظره عبر رحلة الحياة..

* * *
* *
*

الصراصير !

واسمحوا لي بهذا العنوان فقد أكون متجاوزًا.. ولكنه يلحّ علي منذ زمن بعيد ولعل الضرورات تبيح المحظورات..

ولماذا التردد والقرآن الكريم نفسه يصف بعض الشرائح من الناس بأنهم كالأنعام، بل هم أضل، ويشبههم بالكلاب الضالة التي إن تحمل عليها تلهث أو تتركها تلهث.. وبالحمير الذين يحملون على ظهورهم أسفارًا!!

إنهم يحيون حياة تافهة مسطحة لا عمق فيها على الإطلاق.. حياة حشرية يعيش فيها الإنسان ويموت كسحلية أو صرصار، دونما عقيدة.. دونما أي قدر من الإيمان.. مقطوع الوشائج بأي ارتباط أو خبرة روحية من أية درجة على الإطلاق..

لا يصلّون ولا يصومون ولا يعبدون اللّه.. ينامون ويستيقظون.. يأكلون ويسافرون.. ويعودون للنوم مرة أخرى..

لكأنهم قادمون من عالم الرخويات.. يتحركون ببطء، ويمضون إلى أهدافهم ببطء، ويمارسون أعمالهم اليومية ببطء.. ويميلون للجلوس أغلب ساعات يومهم تحت ظلال الجدران الرطبة، أو في المقاهي والكازينوات.. يتمطون

ويتثاءبون والساعات تمر، والزمن يسارع إلى غايته.. وهم جالسون لا يملكون أيما قدر من الإحساس بشيء اسمه الزمن!

يموتون دون أن يقدموا أية إضافة، أو يضعوا أية بصمة على واجهة الحياة.. فما الذي يفرقهم عن السحالي والصراصير؟

ملايين الصراصير تموت يوميًّا دون أن يحسّ بها أحد.. وهؤلاء أيضًا يدلفون إلى الموت دون أن يحسّ بهم أحد..

حياة بهيمية، تصير فيها مطالب الجسد: الطعام والجنس والنوم هي الأقانيم المقدسة التي لا راد لنداءاتها.. وتغيب فيها.. تتلاشى نهائيًّا.. قيم الروح والوجدان.. هنالك حيث يتسطح الإنسان فيغدو كائنًا ينطوي على الطول والعرض، وليس ثمة وراءهما أي عمق على الإطلاق..

ما هكذا أرادها اللَّه سبحانه للإنسان الذي حمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضّله على كثير من خلقه تفضيلًا..

ما هكذا أرادها اللَّه للإنسان، وقد أضاف - سبحانه - إلى قبضة الطين في تكوينه، نفخة الروح، وأخرجه في أحسن تقويم.

ما هكذا أرادها له وقد جعله خليفة في الأرض لإعمارها

وترقيتها من أجل أن تكون البيئة الصالحة لعبادة اللّه سبحانه.. وهي الهدف المركزي من خلق الإنسان في هذا العالم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

ما هكذا أرادها له وقد خلقه لكي يمشي في مناكب الأرض، يبني ويزرع ويعمر ويدعو ويكافح ويجاهد ويذكر اللّه صباح مساء..

إن الحالة التي نتحدث عنها محزنة حقًا.. لأنها حيثما أدرنا حولها المنظور، انشقاق على الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها.. على الحقيقة الكبرى التي تكمن وراء خلق الإنسان.. على الوظيفة التي أريد له أن يحملها والأمانة الكبرى التي كلف بها..

ولعله لحكمة يريدها اللّه - سبحانه - أن تشهد الحياة الدنيا هذا النمط من الإنسان - الصرصار الذي ينتشر على سطح الحياة كالبقع السرطانية، من أجل أن تبدو وتتميز قيمة الإنسان - الإنسان الذي ترتفع قامته عاليًا وهو يمارس وظيفته التي كلف بها، ويمضي قدمًا، محملًا بألف خبرة روحية، لكي يمنح حياته مغزًى وهدفًا..

فبدون المغزى.. بدون الهدف.. تصبح الحياة الدنيا شيئًا لا يستحق أن يعاش!

العقرب المتوقف والزمن الإسلامي

عقرب الساعة في الغرب توقف عند العقل، فعندما تحاول أن تتعامل به مع الزمن الإسلامي فإنه لن يهتز أو يتحرك أو يدور.

زمن مترع بالروح والوجدان الإيماني والتوق إلى الله سبحانه.. زمن ينبض بحقيقة الألوهية ويتمحور عند بؤرة التوحيد.. زمن ممتد عبر آماد لا يكاد يبلغها تصور أو خيال بين الأبدية والخلود.. زمن يضع قبالته لحظة بعد أخرى يوم الحساب: الجزاء والجنة والنار.. زمن يتداخل في لحمته الروحي والمادي.. والطبيعي والميتافيزيقي.. والفناء والخلود.. والدنيا والآخرة.. والحياة والموت.. والمرحلي والخالد.. والله والإنسان..

إنه - بالضرورة - يتأبى على القياس بساعات جمدت عقاربها على مقولات العقل الصرف، وثقل الكتل، وصلابة المواد والأشياء..

من أجل ذلك ما كان بمقدور الغربيين، ومن بينهم جل المستشرقين، أن يسبروا غور التاريخ والحياة الإسلامية وبخاصة في مراحلها المبكرة: عصر النبوة، والفتح، والدفق الروحي، والاتصال اليومي بالسماء..

جلّهم حاول أن يجمع تفاحتين وبرتقالة لكي يصل إلى حاصل الجمع (٣) رغم كونه مستحيلًا في علم الحساب..

بعضهم بذل جهدًا استثنائيًّا لكي يحقق المقاربة المطلوبة، ويقدم رؤية أكثر دقة ومصداقية للحالة موضوع الدراسة.. أذكر منهم المستشرق البريطاني المعاصر (منتغمري وات) في كتابيه: (محمد في مكة) و (محمد في المدينة). وقال في مقدمته: أنه سيحترم البعد الغيبي لعصر الرسالة، لكنه أخفق إخفاقًا ذريعًا؛ لأنه أسوة بمعظم المستشرقين، لم يستطع أن يتحرر من ضغوط الثقافة الغربية، وهي ثقافة مادية كافرة، أو علمانية جانحة في أفضل الأحوال.. ثقافة تتألق وهي تتعامل مع الكتل والأشياء ولكنها تنطفئ عندما تحاول الاقتراب من حافات الروح والغيب.

اليوم تريد العولمة من خلال آليتيها الأسطوريتين: المعلوماتية والإعلامية، أن تغزونا برؤيتها الأحادية الثقيلة هذه.. واليوم تسعى بقصد أو بدون قصد أن تطفئ ألق أرواحنا، وتغيّب منظومة قيمنا حيث لا يتبقى سوى الكتل والمواد والتكاثر بالأشياء..

اليوم تحاول أن تستبدل قيمنا الدينية المتوهجة بمبادئ اللذة الأبيقورية، والمنفعة البراغماتية، والقوة الهوبزية، لكي

ما تلبث الحياة أن تفقد عمقها الحقيقي.. جمالها وانسيابيتها.. سرّ طلاوتها.. إنسانيتها وتوقها الأبدي للتحرر من ثقل القريب الملاصق، والانطلاق إلى سموات الفرح والخلود.

وإنها لصفقة خاسرة بكل المعايير.. ليس للمسلمين وحدهم في هذا العالم، بل للعالم كله على امتداده، وهو يتطلع بشوق عارم إلى الخلاص.. إلى الخروج من البئر الضيقة التي يختنق فيها.. ولن يكون ذلك إلّا على أيدي الأمة التي إن استطاعت إدراك المعادلة، وأحسنت التعامل مع مطالب مهمتها العقدية في العالم، قدمت الخلاص لنفسها وللبشرية، وخرجت بالطرفين معًا من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد والنظم والطاغوتيات إلى عبادة اللّٰه وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..

أي دور كبير هذا الذي ينتظر عالم الإسلام وهو يدلف في مطالع القرن الحادي والعشرين؟!

* * *
* *
*

الديمقراطية العوراء

مهما قيل عن ثوابت الديمقراطية الغربية، وعمقها التاريخي، وقدرتها على الفاعلية والتنامي والاستمرار، فإنها بإحالتها على سلوكيات التعامل الغربي مع العالم، سواء في مرحلة الاستعمار القديم أم الجديد، تبدو محاولة عوراء تنظر بعين واحدة. فهي في الساحة الغربية نفسها تمارس حضورًا ملحوظًا قد يعمق حينًا ويبهت حينًا آخر وفقًا لشبكة من المؤثرات، لكنه حضور مؤكد على أية حال لا يكاد أحد ينكر ما حققه لشرائح اجتماعية واسعة النطاق هناك من نتائج، وما منحه إياها من فرص للتعبير والتحقّق الأدبي والمادي على السواء.

لكن هذه الديمقراطية ما أن تغادر ساحات الغرب باتجاه العالم الثالث وبخاصة عالم الإسلام، حتى تنكمش وتتضاءل وتغيب لكي تفسح الطريق أمام السلطان الغربي، أيًّا كان العرق الذي ينتمي إليه، والعقيدة التي يعتنقها، لكي يمارس كل صنوف القسر والإكراه والتأحيد الفكري، ويحجب عن (الآخر) أية فرصة، إلَّا في حالات استثنائية لا يقاس عليها، للتعبير عن الذات وضمان الحقوق المشروعة ولو في حدودها الدنيا.

وإذا كان الغرب (الديمقراطي) كما يسمى قد مارس أيام تعدّد قياداته، هذه الثنائية اللاأخلاقية في التعامل مع الآخر، فأحرى به وقد تمركزت مقدّراته ومقدّرات العالم من ورائه تحت سلطان القيادة الأمريكية المتفردة، أن يمضي بالمعادلة الجانحة.. بالرؤية العوراء.. بالثنائية التي تحفر خندقًا بين الغربي والشرقي، إلى المدى؛ حيث ينفلت عقال القوّة، وتغيب حسابات الردع ومعادلات التوازن الدولي المفقود.

ثمة ما يخطر على البال في هذه العجالة، لمجرد المقارنة أو الذكرى..

عندما أتيح للمسلم أن يقود العالم زمن تألّقه العقدي والعسكري والحضاري، منح الإنسان، أيًّا كان موقعه من العقيدة أو العرق أو اللون أو الطبقة أو الجغرافيا، حرية الانتماء وفرصة التحقّق الذاتي، أي أنه قدر على أن يكون (ديمقراطيًّا) بالمفهوم الأخلاقي الذي تفرضه ضرورات هذا الدين. ومضت ثلاثة عشر قرنًا دون أن تشهد الأرض الإسلامية، كما يقول سير توماس أرنولد في كتابه المعروف (الدعوة إلى الإسلام) حالة واحدة أكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام.

وفي مقابل هذا، وفي اللحظة التي أتيح فيها للنصراني الغربي في إسبانيا أن يسقط آخر موقع إسلامي في غرناطة،

نُفِّذت واحدة من أبشع المجازر في التاريخ البشري عنفًا ووحشية.. عملية اغتيال شرسة لأمة بكاملها وتصفيتها فكريًّا وجسديًّا ودينيًّا وحضاريًّا.. أليس هم أجداد الإنكليزي والفرنسي والروسي والأمريكي؟ أليس هؤلاء هم أحفاد فرديناند وإيزابيلا؟

وعندما دخل الصليبيون القدس عام (٤٩٢هـ) ذبحوا باعتراف مؤرّخيهم سبعين ألفًا من أهالي المدينة المقدّسة ما بين شيخ وطفل ورجل وامرأة.. وعندما استعادها الناصر صلاح الدين ودخلها محرّرًا لم يقتل رجلًا واحدًا!

والمرأة الفرنجية التي جاءت تبكي وتتضرّع لأن طفلتها أفلتت منها وضاعت في فوضى الانسحاب الفرنجي من القدس، طمأنها صلاح الدين ووضع من يسهر عليها وبعث ثلّة من رجاله يبحثون عن طفلتها المفقودة لكي يردّوها إليها.. رغم أنه يعرف أن هذه المرأة كان أبوها أو جدّها قد ذبح بسكّينه عشرات الأطفال والنساء لحظة دخول القدس..

وعندما أتيح للصربيين أن يدخلوا مدن البوسنة والهرسك هتكوا عرض خمسين ألف فتاة مسلمة في أيام قلائل تحت مظلة جريمة التطهير العرقي التي تمثل بحدّ ذاتها « الجريمة الكاملة » النقيضة للديمقراطية والتي تمكن مرتكبها من الإفلات من العقاب أو حتى الإدانة.

واليوم فإن الغربي المتحضر لن يستطيع أن ينسلخ عن جلده، وتمركز قيادته في دولة واحدة قدّر لها أن تحكم العالم لمدًى لا يعلمه إلّا اللَّه، قد يقود إلى شواهد دموية أخرى بغض النظر عن كل الممارسات الديمقراطية التي تحمي الإنسان هناك في ديار الغرب، لكنها تذبحه هنا في ديار الإسلام.

إن فرديناند وإيزابيلا ومحاكم التفتيش تنتظر دائمًا اللحظة المناسبة لكي تواصل اغتيالها لفكر (الآخر) وعقيدته، كلما أتيحت لها الفرصة بغضّ النظر عن تعدّدية القيادة الغربية أو تفرّدها.. فالأمر سواء.. ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* * *
* *
*

ما الذي حدث؟

يتألم الإنسان كثيرًا وهو يرى بعض التقاليد ومفردات السلوك اليومي الإسلامية متجذرة في ديار الغرب، بينما تكاد تتلاشى وتغيب في ديارنا؟

ليس بالضرورة لأن الغربيين تعلموها من قاموسنا الإسلامي، وإنما هي عندهم وليدة تنامي الخبرة الاجتماعية التي تتحرك (أحيانًا) على خط صاعد، وتصل بالجماعات والشعوب إلى اكتشاف (الحالات) و (الممارسات) السلوكية الأفضل والأحسن والأكثر ملاءمة لإنسانية الإنسان وحياته الاجتماعية.

في لندن.. في باريس.. في برلين.. في مدريد.. في كل عواصمهم ومدنهم وقراهم، تكاد ترى وأنت تتعامل معهم البسمة نفسها وهي تغمر الوجوه، والكلمة الطيبة ذاتها معلقة على الشفاه، والرغبة العفوية غير المصطنعة في إماطة الأذى عن طريق الناس..

أليس رسولنا - عليه أفضل الصلاة والسلام - من علمنا أن « **الكلمة الطيبة صدقة** » [متفق عليه]، وأن تبسمنا في وجوه الآخرين صدقة؟ أليس هو الذي طلب منا، بل أمرنا، أن نميط الأذى عن طريق الناس، ماديًا كان هذا الأذى أم معنويًا؟

والقرآن الكريم، ألم يأمرنا أن نردّ التحية بأحسن منها، أو أن نعيدها كما وجهت إلينا على أقل تقدير؟

ما الذي يحدث في ديارنا ونحن نتعامل مع بعضنا في الدوائر والأسواق والأماكن العامة والمؤسسات، فلا نكاد نتلقى كلمة طيبة، أو بسمة حانية، أو رغبة جادة في إماطة الأذى عن طريق بعضنا والبعض الآخر.. أيًّا كان هذا الأذى؟

وأين هو ردّ التحية بأحسن منها، أو حتى ردّها كما هي؟

تقول للموظف أو البائع، وأنت تتسلّم منه المعاملة أو تسلّمه النقود:

« شكرًا » فلا يرد عليك.. ويا ليته يقف عند هذا، بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك فيرمي بالمعاملة أو بقية النقود في وجهك وكأنها منة يمنّ بها عليك..

تبتسم بمودة في وجه هذا الموظف أو البائع أو ذاك، فلا يبادلك الابتسام، بل إنه يمضي إلى أبعد من ذلك فيقطب في وجهك وملامح الغضب والازدراء تكسو وجهه..

تسلّم بحرارة على هذا الشاب أو تلك المجموعة من الشبان، فيردّون عليك همسًا من أطراف أنوفهم، وقد لا يردّون أساسًا، وأنت لا تريد سوى أن تسترجع تحيتك كما هي، فلا تحظى بما تريد..

حياة متيبّسة لا تطاق.. ومشاعر نضب فيها كل ما هو عذب ورقيق.. ونفوس طغى عليها الجفاء.. ووجوه لم تعد ترى فيها ذرة من حنان..

ما هكذا أرادها لنا رسول الله ﷺ..

ومن عجب أن بعض هؤلاء الذين تتحدث عنهم يصلي ويصوم ولا تكاد تفوته صلاة في مسجد.. فأين ذهب إذن تأثير صلاتهم وصيامهم في تهذيب نفوسهم، وترقيق عواطفهم، وصياغة مفردات سلوكهم؟

قد يقول البعض: إن الزمن الصعب الذي اجتازه المسلمون عبر القرون أو العقود الأخيرة بوجه الخصوص، استأصل من نفوسهم الكثير، واستلب من مفردات سلوكهم الكثير.. فقد يكونون معذورين في تصرفاتهم تلك!

والردّ على هذا الادّعاء ليس صعبًا أو عسير المنال.. فها هي ذي الشعوب الغربية تجتاز عبر الحربين العالميتين الأولى والثانية متاعب وأهوالًا لا تقل عما ابتلينا به واجتزناه.. ولكنهم لم يفقدوا الكلمة الطيبة والبسمة الحانية وردّ التحية بأفضل منها..

لا بل إن كلمة (آسف) تكاد لا تغادر شفاههم حتى وهم يتلقون أخطاء الآخرين، وربما تجاوزاتهم وعدوانهم..

❊ ❊ ❊

أزمة التربية في ديار الإسلام

تكشف أزمة تربية الأجيال المعاصرة من المسلمين عن نفسها بوضوح فلا تحتاج لممارسة لعبة وضع الخلفيات الفلسفية، أو الإلحاح في التنظير والتحليل. إنها على قدر من الوضوح أو الحضور، يجعلان المرء يقتنع تمامًا بأن أساس البلاء في السياقات التربوية كافة هو هذا الفصام النكد بين العلم والدين، والذي مورس في المدارس والمعاهد والجامعات منذ ابتلينا بالاستعمار.. إنه بدء جلّ المشكلات التي عانت منها الأجيال المعاصرة ولا تزال، وحجر الزاوية فيها..

وإذا كان الاستعمار قد رحل منذ زمن بعيد، فما الذي يجعلنا نتشبث لحدّ الآن بتركته الثقيلة هذه التي أحدثت شرخًا غائرًا في عقل المسلم المعاصر ونفسه؟ وإذا كانت الخبرة التربوية في الغرب تقتضي إبعادًا للمؤثرات الدينية من دائرة التربية والتعليم، وفصلًا صارمًا بين العلم والدين لأسباب دينية وتاريخية معروفة، فما الذي يجعلنا نحن المسلمين نمرّ من القناة الضيقة نفسها؟ في الوقت الذي نلحظ كيف أن الكلمة الأولى في كتاب اللّه كانت (اقرأ) وإلى جوارها آيات التكريم للعلم والقلم، وكيف أن هذا

الكتاب المعجز دعا إلى التفكر والتدبر والتأمل وإعمال العقل والحواس في الظواهر والأشياء، وكيف أن نبض القرآن الكريم وسنة رسول اللّه ﷺ يتداخل فيهما ويلتقي العقل والحسّ والإيمان، فيما يصعب معه إيجاد أية ثغرة للفصل بين هذا الجانب أو ذاك؟!

ليس ثمة نصيحة تسدى، أو رأي يزجى، قبل وبعد ومع الدعوة الملحة إلى ضرورة إعادة الوئام بين العلم والدين، بين العقل والإيمان، منذ تأسيسات النشاط التربوي وحتى آخر مرحلة للدراسات العليا.

ولعلّ أنشطة أسلمة المعرفة، والتأصيل الإسلامي للنشاط التربوي الذي تنفذه بعض المعاهد والجامعات في ديارنا الإسلامية، تجيء استجابة لهذا التحدي الذي يخترق عصب العملية التربوية، ويقود أجيالًا من المسلمين بكاملها إلى الازدواجية والتفكك والدمار.

محمد أسد (ليوبولد فايس) يشير في كتابه القيم (الإسلام على مفترق الطرق) إلى أن استيراد المناهج التربوية من الغرب فَعَلَ فِعْلَ السم في الجسد الإسلامي، وساقه إلى التفكك والدمار..

وهو محق في ذلك.. إذ إن رؤية الغربيين للحياة والوجود، وتصوّرهم عن المصير، وعن مهمة الإنسان في

هذا العالم، تتناقض - ابتداء - مع رؤيتنا وتصوّرنا.. إنها رؤية علمانية، وتصوّر يجنح أكثر فأكثر باتجاه المادية والإلحاد.. وقد انعكس هذا في معطياتهم الفكرية ومناهجهم التربوية، وبالتالي: فإن استيراد هذه المناهج، والعمل بها على عواهنها، قاد بالضرورة إلى إحداث واحدة من أشد الكسور بشاعة في عقول الناشئة ووجدانهم.

وللأسف الشديد، لم يحدث هذا كله بسبب الاستعمار يوم كان مسيطرًا على ديارنا، وإنما ساعدته في ذلك النخب العلمانية من المسلمين أنفسهم، والتي تلقت المؤثرات الغربية كاملة يوم كانت تدرس هناك في معاهد أوروبا وجامعاتها.

ولعلّ هذا هو الذي يفسّر استمرار الخطيئة التي بدأها الاستعمار، وجاء هؤلاء لكي يمضوا بها قدمًا.

واليوم، وإزاء هجمة العولمة التي لا تقل شراسة وعنفًا، على بقايا المكونات الإسلامية في مناهجنا.. اليوم إزاء حملة تجفيف منابع الإسلام والمؤثرات الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا، تحت مظلة مقاومة الإرهاب، تزداد الحاجة إلى مزيد من التحصّن في خصوصياتنا التربوية ذات العمق الديني، وإلى الدفاع المستميت للإبقاء عليها وحمايتها من الدمار والإفناء.

وإلا فهو ضياع ما تبقى لهذه الأمة المضطهدة المنكودة.. رغم أن ما تبقى هو أقل من القليل.. ولا حول ولا قوة إلّا باللَّه!

* * *
* *
*

حول دور الأخلاق في النهوض والانهيار

على تغاير الأماكن والأزمان، وتبدّل الدول والحضارات، تظل القيم الخلقية نقطة الارتكاز في مسيرة الأمم والشعوب. فبالتمسك بها يكون التقدم والصعود، وبالتنازل عنها والتفلت منها يكون الانهيار والسقوط.

ولقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] ووصف رسوله الكريم بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، مؤكدًا بذلك على أن أحد العوامل الأساسية لنجاح الدعوة الإسلامية وتمكنها من تحقيق أهدافها الكبرى إنما كان بما تميز به نبينا العظيم ﷺ من خلق عالٍ أريد لهذه الأمة (قيادات وشعوبًا) أن تسير على هديه فيه لكي تكون سيدة في هذا العالم.

ولعل واحدًا من أهم عوامل انهيارنا الحضاري عبر القرون الأخيرة، هو ضعف، وربما غياب، الوازع الخلقي الذي هو أساس يقظة الضمير وفاعلية الأمة، وقدرتها على العطاء والإبداع.

ومن قبل كان الشاعر المعروف (أحمد شوقي) قد جمع

هذه المعاني في بيت من الشعر تناقلته الأجيال بما انطوى عليه من معانٍ ودلالات:

وإنــما الأمــم الأخــلاق مــا بـقـيـت

فـإن هــمو ذهــبت أخــلاقهــم ذهبوا

إن الكثيرين يذكرون - على سبيل المثال - كيف كان انهيار فرنسا السريع على يد القوات الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية، بسبب من تفكك القيم الخلقية هناك.

ويذكرون - كذلك - كيف أن زعماء الدول الكبرى في ستينيات القرن الماضي من مثل (كندي) في أمريكا و (خروتشوف) في الاتحاد السوفياتي السابق، حذروا شعوبهم من الانجراف وراء الملذات وتجاوز مطالب القيم الأخلاقية وأن ذلك قد يكون عاملًا ذا تأثير بالغ على مصائر الدولتين. ولقد جاءت الأحداث لكي تعزز مخاوف الرئيسين المذكورين.

إن الوقائع التي تؤكد دور الأخلاق في نهضة الأمم أو دمارها كثيرة، وكتابات المفكرين ودعاة الإصلاح كثيرة هي الأخرى.

وقبل هذا وذاك تأكيدات كتاب اللّه سبحانه وسنة رسوله ﷺ على خطورة هذه المسألة.

إن القيم الخلقية هي التي تنظم سلوك الأفراد والجماعات،

وتضع مؤشراته وضوابطه، وتلعب دورًا كبيرًا في حركة الأمم ونموّها، وأنه في حالة ضياع هذه القيم فستكون هناك الفوضى، وسيعم الاضطراب سائر العلاقات، فيكون التفكك والدمار.

إنها أشبه بعلامات المرور الكهربائية (الترافيك لايت) التي تنظم السير في شوارع المدن الكبرى، وبالجاذبية التي تنظم حركة الكواكب والنجوم في ساحات الكون، فلولا هذه وتلك لحدثت الفوضى والارتطام سواء في الشوارع والمدن، أم في بنية الكون.

إن هناك قيمًا كثيرة نعرفها جميعًا لأننا نتعامل معها سلبًا وإيجابًا في كل يوم، بل في كل دقيقة، في بيوتنا ومدارسنا وأسواقنا ومؤسساتنا وعلاقاتنا كافة؛ مثل الصدق والأمانة والوفاء والشجاعة والإخلاص والإحساس بالمسؤولية ويقظة الضمير والمروءة والإيثار واحترام الكبير والعطف على الصغير ومراعاة حقوق الجار وكفالة الفقراء والمستضعفين، والجد في العمل والالتزام بالمواعيد وعدم نكث العهود والمحبة والتضحية.. إلخ..

لنتصور مجتمعًا من المجتمعات التزم بهذه القيم في حياته اليومية، ونشاطه العملي، كيف سيتقدم في مضمار الرقي الحضاري، وكيف أنه بتخلّيه عنها سيتأخر بلا شك، وسيدع المجال للأمم والجماعات الأكثر التزامًا بهذه القيم

لكي تسبقه وتتفوق عليه.

وإذا نظرنا إلى التاريخ فإننا نستطيع أن نفسر انهيار وزوال الكثير من الدول والإمبراطوريات والحضارات بهذا العامل الأخلاقي تحديدًا..

حقًّا إن الشاعر (أحمد شوقي) لخّص ببيته ذاك الكثير مما يمكن أن يقال في علاقة منظومة القيم الخلقية بقوة الأمم وضعفها، بارتفاعها وسقوطها على السواء..

وهكذا يكون شعر الحكمة مدرسة يمكن أن نتعلم منها الكثير، وصدق رسول اللَّه ﷺ القائل: « **إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرًا** » [ذكره الهندي في كنز العمال]..

* * *
* *
*

من ثمار كتاب اللّـه..

ظاهرة الارتباط الوثيق بين المكتبة كمؤسسة وبين الحضارة، تكاد تكون بديهية من البديهيات التي لا يماري فيها أحد، بل إن المكتبة تعد واحدًا من المؤشرات على درجة التطور الحضاري لأمةٍ ما من الأمم أو شعب من الشعوب.

وبمجرد متابعة عدد المكتبات في كل دولة، وما تتضمنه من مؤلفات، وحجم الخدمات التي تقدمها، وعدد الباحثين والمطالعين والطلبة الذين يترددون عليها، يمكن للمرء أن يحكم على المرحلة التي بلغتها تلك الدولة في سلّم الحضارة.

ذلك أن المكتبة تضم جناحيها على حصيلة الإنجازات الفكرية والثقافية لأي شعب، وليس ثمة مؤسسة أخرى كالمكتبة يمكن أن تلخص طبيعة المسار الفكري والثقافي للأمم والشعوب، هذا إلى أن اتساع نطاق المتعاملين مع المكتبة أو انخفاضه، يمكن أن يوجز لنا - هو الآخر - المدى الذي بلغته هذه الأمة أو تلك.

ونحن لو التفتنا إلى عصور الازدهار والتألق الحضاري الذي بهرنا به العالم يومها، لوجدنا كيف كان (الكتاب)

وكانت (المكتبة) بالتالي واحدة من أهم مراكز الثقل، وعوامل الدفع والإنجاز في مسيرة تلك الحضارة. ويكفي أن نقرأ بعض شهادات الباحثين الغربيين لكي يتأكد لنا ذلك.

يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر (إدوار بروي) في كتاب (تاريخ الحضارات العام): « .. لقد بلغ من غنى التأليف في العالم الإسلامي ما يجعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف به في فهارس علمية. وقامت في حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصت بعشرات الألوف من الكتب، جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين.. كل هذا كان يفترض عددًا كبيرًا من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين ».

ويقول الباحث الفرنسي المعاصر الدكتور (موريس بوكاي) في كتابه (دراسة الكتب المقدسة): « لقد أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة. ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد.. وكان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها ».

ويقول المستشرق المعروف (فرانز روزنثال) في كتابه (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي): « كانت المكتبة الخاصة بالنسبة للعالم المسلم، أعزّ ما يملكه، وكان فقدها كارثة تترك في نفسه ألمًا أشد من الألم الذي يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه ».

وهناك غير هذه وتلك عشرات الشهادات ومئاتها على ما كان للكتاب والمكتبة من دور فعال في تاريخنا الحضاري.

أليست هذه الحضارة المتألقة، وتلك التقاليد المعرفية الأصيلة، هي ابنة كتاب اللّه الذي تنزلت كلماته الأولى تأمر الإنسان بالقراءة، وتمجد العلم والقلم؟﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥].

أليست هي ابنة كتاب اللّه الذي دعا إلى العلم في مئات الآيات، وحثّ المسلم على إعمال قدراته الحسية والعقلية لاكتشاف العالم، وما ينطوي عليه من سنن ونواميس وكنوز وطاقات؟

أليست هي ابنة هذا الدين الذي أعلن رسوله الكريم ﷺ بأن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء؟

* * *

في قضية المرأة

يبدو أن البعد الحقيقي لإشكالية المرأة في ديارنا الإسلامية يتمثل في الفاصل الذي تشكل عبر التاريخ بين التأسيسات الإسلامية لقضية الأسرة والمرأة في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ واجتهادات الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.. وبين ما يجري على أرض الواقع.

فالتأسيسات الإسلامية تمثل السقف الأعلى المرسوم بعلم اللَّه سبحانه وإيضاحات رسوله الكريم ﷺ لوضع المرأة والأسرة وكل الحلقات والممارسات المرتبطة بهذين القطبين.

وبمجرد مقارنة بين الحالات الأخرى في العالم (دينية محرّفة، أو علمانية أو رأسمالية أو شيوعية) والحالة الإسلامية وتراجع تلك الحالات باتجاه الحالة الإسلامية، تتأكد مصداقية هذا الحكم.

فالمشكلة إذن هي في الممارسات الواقعية المتراكمة عبر التاريخ، وبخاصة زمن الانكسار الحضاري، والتي ابتعدت بالمرأة، عن المطلوب الإسلامي بدرجة أو أخرى.. ومع ذلك فإن هذه الممارسات لا تعدو أن تكون بقعًا محدودة على سطح الحياة الإسلامية.

في زمن تألقنا الحضاري ليس ثمة غياب أو تغييب للمرأة المسلمة.. لقد كانت حاضرة في صميم الفعل التاريخي وفي قلب المجتمع: عالمة ومتعلمة وواعظة وتاجرة ومقاتلة وممرضة، وداعية إلى اللَّه.. فضلًا عن وظيفتها الأساسية زوجة وأمًّا وحاضنة ومربية..

كانت تساهم مع الرجل في صناعة الحياة.. لم يكن هناك تاريخ للنساء وآخر للرجال.. يكفي أن نرجع إلى كتب التراجم لكي يتأكد لنا هذا.. لم تمنع المرأة من الاعتزاز بخطابها، بل على العكس كان تألقها وعطاؤها في هذا الميدان أو ذاك مثار إعجاب المجتمع وتقديره.

في عصور الانكسار الحضاري، ولأسباب ترتبط بقوانين الفعل الحضاري، أخذت المرأة المسلمة تغيب وتغيّب، وانسحبت من صناعة الحياة، وبهت خطابها، وأخذت تعاني من الخوف والضعف والانكماش، وربما الإحساس بالنقص.

وجاءت الصدمة الاستعمارية الغربية لكي تعطي الفرصة لدعاة السوء، في القفز على الجغرافيا والتاريخ، على العقيدة والتقاليد الأصيلة، واستيراد الحالة الغربية التي لا تتلاءم أساسًا مع الهندسة الإسلامية لقضية المرأة والأسرة.

باختصار شديد فإن التقيد بالموروث الخاطئ سيقود

إلى المزيد من عزلة المرأة، كما أن التحديث المنفلت الذي يستورد القوالب الجاهزة من الآخر، سيزيد المشكلة تعقيدًا.

والجواب هو ما بدأنا به هذه الكلمات: بذل جهد مكافح لتحقيق المقاربة المرجوة بين التأسيسات الإسلامية وبين واقع المرأة، وهو ما أخذت الخارطة الإسلامية تشهده عبر العقود الأخيرة بجهود الدعاة والعاملين..

وحينذاك ستشهد البشرية الحالة النموذجية التي تتوق إليها المرأة في العالم كله، فيما تؤكده شهادات أولئك اللواتي انتمين إلى الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

* * *
* *
*

أسلمة المعرفة : ضرورة ملحة

تراجع تأثير العقل المسلم في الحضارة الإنسانية عبر القرون الأخيرة، وبخاصة في أعقاب نهضة الغرب الصناعية وتفوّقه المادي المتزايد. وأصبح المسلمون عالة على غيرهم، بعد أن كانوا قد تبوَّأوا مركز القيادة الحضارية حينًا من الدهر.

وما من شك في أن هناك أسبابًا عديدة اجتمعت لتقود إلى هذه الحالة وأهمها ولا ريب:

أولًا: تخلّف علماء المسلمين عن الأخذ بأسباب المدنية الحديثة منذ مراحلها المبكرة، وبخاصة في مجالي العلوم الصرفة والتطبيقية، وازدياد الهوّة بين الغرب المتقدم والشرق المتخلف عمقًا وامتدادًا بمرور الوقت. ولم تكن حركات التجديد الإسلامي، على ما قدمته من عطاء، بقادرة على الاستجابة لتحدي التفوق الغربي، بسبب من رؤيتها التجزيئية، وانكماشها على جوانب ضيقة عبر بحثها عن الذات، في مواجهة ذلك التفوق.

ثانيًا: اختيار قطاعات واسعة من المسلمين، بما فيهم العديد من قادة الفكر، والرأي، صيغة الهروب من المجابهة الحضارية، والتشبث السكوني بالماضي، واعتبار أية محاولة

للإفادة من الفرص الإيجابية للتفوق الغربي خروجًا عن الجادة. وقد ساعد على هذا توقف حركة الاجتهاد بسبب العجز والخوف وعدم القدرة على الابتكار والتجديد.

ثالثًا: تمركز القيادات الفكرية والتربوية بيد السلطات الاستعمارية التي كانت إلى وقت قريب تباشر قيادة الحركة الثقافية في بلدان العالم الإسلامي، وتحجب عنه السبل السليمة للإفادة من خبرات الغرب العلمية والتقنية، ومحاولة إعادة البناء على أسس متينة.

رابعًا: تضاؤل الإيمان، والثقة بالذات، لدى غالبية الفئات المتعلمة من أبناء عالم الإسلام، وانبهارها بمعطيات الغرب المتفوق، إلى حد التنازل عن قيمها الأصيلة، ورؤيتها المتميزة، وفنائها في الغالب، واعتبارها الوجود المادي المنظور هو المصدر المعرفي الأول والأخير، والحكم الحاسم في بنية الفعل الحضاري، واهتزاز الإيمان بالغيب مصدرًا أساسيًّا للمعرفة، الأمر الذي ترك الساحة نهبًا للتيارات المادية التي ترفض الإيمان باللَّه ورسله واليوم الآخر، وترى في منظومة القيم الخلقية مجرد أدوات نسبية لتحقيق المصالح والأهواء.

ولما كان كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ يتضمنان رؤية مغايرة تمامًا، تسعى لإقامة البناء الحضاري على قاعدتي

الغيب والوجود معًا، وتقيم الحياة البشرية على أسس أخلاقية ثابتة وسليمة.. ولما كان هذان المصدران ينطويان في الوقت نفسه على حشود من الخبرات والتقاليد والحقائق والكشوف العلمية الضرورية، بإضافتها إلى البعد الإيماني، لتحقيق التوازن المطلوب الذي افتقدته الحضارة الغربية المعاصرة.

فإن قيام حركة أسلمة المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة، يعد من الضرورات الملحة لتجاوز الصيغ الخاطئة في التعامل مع الأصول الإسلامية قرآنًا وسنة، من جهة، ومع المعطيات العلمية للحضارة الغربية من جهة أخرى ولسوف ينصب الجهد، بصيغه وقنواته كافة، على إعادة الثقة بالذات للمسلم الذي سيجد مصادره الإسلامية قد سبقت إلى التأكيد على التعامل العلمي العقلاني مع العالم المحيط، للكشف عن سننه، واستخراج طاقاته المذخورة، وإقامة حياة متوازنة سليمة لا إفراط فيها ولا تفريط؛ حيث يلتقي العلم بالإيمان، كما أراد لهما اللَّه ورسوله ﷺ، ويستقيم المسار الحضاري بعد إذ انحرفت به السبل عبر القرون الأربعة الأخيرة، ويرجع المسلمون إلى مركز الفاعلية الحضارية كَرَّةٍ أخرى.

* * *
* *
*

فرصة للخدم والعبيد

ليس ثمة كالحضارة الإسلامية منحًا للفرص المفتوحة للخدم والمستضعفين والعبيد.. لقد شكل هؤلاء دولًا في تاريخ هذه الحضارة، حكمت القرون الطوال.. ولم يقل أحد من أبناء الأمة وقادتها على السواء أن هذا لا يجوز!

ودائمًا كان بمقدور الحلقات الدنيا أن تتحرك، وأن تصعد إلى الأعلى، وأن تبلغ القمة، ليس في مجال الحكم فحسب، بل في مجال المال والإدارة والمجتمع والنشاط العلمي والثقافي، وسائر مناحي الحياة.

إذا كانت البداية أن يصبح بلال الحبشي الأسود سيدًا للمسلمين، وأن يتم اختياره من بين سائر الصحابة والأتباع لكي يرفع أول نداء للصلاة على سطح الكعبة بعد تحريرها، ونعلاه يخفقان فوق رؤوس السادة والكبار من طلقاء مكة.. وإذا كانت البداية أن يقول ﷺ مخاطبًا أبناء أمته: « **اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد أسود كأن رأسه زبيبة** » [أخرجه البخاري]..

وكل ما سيتحقق بعد ذلك.. كل ما سيشهده مجرى التاريخ الإسلامي عبر تدفقه الصاخب من صعود الفقراء والكادحين والعبيد والمستضعفين إلى أعلى السلم إنما هو

حالة طبيعية تمامًا، في ساحة حضارة فتحت صدرها للجميع، حتى أولئك الذين لم ينتموا للإسلام، وفي ضوء تعاليم دين لم يفرق مطلقًا بين الأسود والأبيض، والسادة والعبيد، والأغنياء والفقراء..

ولا يزال اسم (بلال) ينساب على ألسنة المسلمين مسبوقًا بكلمة (سيدنا)، ألا يحمل هذا دلالته الحاسمة فيما نحن بصدده ؟ وعمر بن الخطاب ﷺ عندما يقول: « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » يحكم على بلال بأن يصير سيدًا للمسلمين كافة بما فيهم أَتباع رسول اللَّه ﷺ من الصحابة الكبار.

والمماليك الذين كانوا يباعون ويشترون في الأسواق، أقاموا في مصر والشام والحجاز دولتين كُبْرَيَيْن أسهمتا بشكل واسع، ليس في مصائر عالم الإسلام فحسب، بل في إبداعه الحضاري.. والكثيرون من علماء الأمة وقادة الفكر فيها قدموا من طبقة الموالي والعبيد، وساهموا بكفاءاتهم المتميزة في بناء صرحها الحضاري، فيما هو معروف للقاصي والداني.

والأمثلة كثيرة، كثيرة جدًّا، وليس بمقدور أحد من الباحثين أن يجد عشر معشارها في أي دين أو مذهب أو نظام في العالم على امتداده.

في الهند - على سبيل المثال - كان المنبوذ يظل منبوذًا

مهما حاول، ومهما امتلك من طاقات وقدرات، أو قدم من عمل.. الأبواب موصدة أمام هذه الطبقة السفلى في المجتمع، رغم كونها تعد بالملايين..

وفي روما كان كل غير الرومانيين محسوبين على طبقة الخدم والعبيد والأجراء..

هذان شاهدان - فحسب - من عمق زمني بعيد.. أما في العصر الحديث فيكفي أن نلقي نظرة على ما كان يجري في الولايات المتحدة الأمريكية حتى عهد قريب وأن نقرأ كتابًا كـ (جذور) للكاتب الأمريكي الزنجي (ألِكس هيلي) لكي نرى بأم أعيننا ما فعله البيض بالسود هناك مما تقشعر لهوله الأبدان.

وإلى زمن ليس ببعيد لم يكن بمقدور الزنجي في أمريكا أن يأكل في مطاعم البيض أو ينزل في فنادقهم.. بل إن المفارقة التي تدعو للسخرية أن هذه التفرقة نقلت عدواها هناك حتى إلى الشيوعيين الأمريكان الذين كان أبيضهم يرفض أن يبيت أو يأكل في مكان واحد مع السود.

بل إن الدستور الأمريكي لا يزال يقف في وجه كل أسود يطمح لأن يرشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة..

والقرآن الكريم قالها بوضوح وحسم منذ اللحظات الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول اللّه ﷺ بالوضوح والحسم نفسه : « **لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي... إلا بالتقوى** » [أخرجه أحمد]. « **الناس بنو لآدم وآدم من تراب** » [أخرجه الترمذي].

ومن هذا المنطلق الذي يقف فيه الإنسان إلى جانب الإنسان على قدم المساواة، بغض النظر عن لونه وعرقه وجنسه وطبقته، وما يملكه من مال، بل حتى عن دينه وعقيدته.. من هذا المنطلق تدفقت تقاليد حضارة فريدة منحت فرصها للجميع..

* * *
* *
*

البداية الصحيحة

يقول الرياضي المعروف (كارلوس) في مقابلة صحفية: « أقهر نفسي أولًا ثم أجيء إلى الآخرين ».

وذلك حق.. وهو البداية الصحيحة ليس على المستوى الجسدي وحده، ولكن على كل المستويات.

لقد قالها كتاب اللَّه منذ عصر التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأدار بذلك الكاميرا على جانبي الإيجاب والسلب في عملية التغيير الذاتي التي هي أساس كل تغيير.

ولطالما حاولت المذاهب الوضعية أن تمارس التغيير من الخارج ثم تجيء بعد ذلك إلى الإنسان، فانتهى بها الأمر إلى الإخفاق الذريع لأن نقطة انطلاقها كانت خاطئة، ولأن حركتها للتغيير بدأت من الاتجاه المعاكس.

الإنسان أولًا.. الإنسان بما أنه صانع الأفعال والمعني بمردودها عليه فردًا وجماعة.. وقديمًا قيل: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟

أن نكسب أنفسنا.. أن نعيد صياغتها بين الحين والحين.. أن نخضعها لرقابة دائمة ونقد ذاتي متواصل.. أن نطفئ فيها

منابع الشر ونفجر - في المقابل - عيون الخير الثرّة.. ألا نجعلها تفلت من بين أبصارنا لحظة واحدة.. لأن معنى ذلك أننا منحنا الشيطان الفرصة للتسلل إليها وتخريبها.

وقهر النفس ليس معناه إذلالها وإضعافها وتدميرها، كما قد يخيّل للبعض، وإنما إعادة بنائها لكي تكون أكثر توافقًا مع منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية، وبالتالي أكثر قدرة على الالتزام، وعلى مواصلة الطريق الصعب حتى نهايته، رغم كل ما يتطلبه من مشاق وتكاليف.

في المنظور الإسلامي ليس ثمة دعوة على الإطلاق لتدمير النفس، وإنما على العكس دعوة للتحقق الذاتي الذي يضع الإنسان في بؤرة التوازن والفاعلية.. ويكفي أن نقرأ الآيات والأحاديث النبوية المعنية بالإنسان لكي يتأكد لنا ذلك، يكفي أن نطالع كتاب الفيلسوف الباكستاني المسلم (محمد إقبال) (تجديد الفكر الديني في الإسلام) لكي يتجلى لنا ذلك بأوضح الصور وأكثرها عمقًا في الوقت نفسه.

الخبرة الإسلامية تختلف في أساسها عن الخبرات الدينية الشرقية، وبخاصة تلك التي شهدتها الساحات الهندية والصينية.. ها هنا دعوة لتدمير الذات بحجة التحرّر من ضغوطها، أما في الإسلام فإنه السعي الموصول لتحقيق الذات.

والإسلام، بما أنه دين واقعي يسعى لإعادة بناء العالم، لا يمكن أن يناقض نفسه؛ ولذا كانت تأكيداته منذ اللحظات الأولى، على ضرورة إعادة بناء النفس لكي يكون المسلم أقدر على الفعل والإنجاز والتغيير في الخارج.. في العالم.. فإن النفس المهزومة.. النفس المنسحبة من الحياة لا تملك القدرة على تغيير الحياة.

وكلّنا يذكر ذلك المسلسل المرسوم في هذا الدين لرحلة صعود الإنسان إلى أعلى عبر محطات الإسلام.. الإيمان.. التقوى.. فالإحسان.. هنالك حيث يكون المسلم قد بلغ القمة، وتمكن من نفسه، وأصبح قديرًا على توجيهها كما يريد هو لا كما تريد هي.

ومرة أخرى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] وصدق اللّه العظيم..

* * *
* *
*

تشابه مثير للدهشة!!

سبحان اللَّه!

ما هذا التشابه المثير للدهشة في مواقف العلمانيين والملاحدة من هذا الدين؟

تشابه فكري ونفسي، يعتمد ردود أفعال تكاد تكون واحدة، وسلوكيات في الجدل والنقاش لا يكاد أحدهم يختلف فيها عن الآخر..

إنهم يسدّون آذانهم عن الحجج والبراهين والأدلة التي يقدمها الطرف الإسلامي، وينطلقون من ثوابت صنعوها هم أنفسهم، واقتنعوا بها، وغدت لشدة تكرارها بالنسبة إليهم عقيدة ودينًا.

ولهذا هم يغضبون، وتنتفض أوداجهم، وقد تصدر عنهم كلمات وتعابير غير لائقة، إذا ما حاول أحد اختراق تلك الثوابت أو التشكيك فيها.. تمامًا كما يغضب المؤمن عندما يخترق إيمانه أو يشكك فيه.

ما هذه القوة (الخفية) التي تدفعهم إلى التشبث بقناعاتهم، والتعبّد لها، واعتبارها عقيدة ودينًا؟

وفي مقابل هذا، ما هذه القوة (الخفية) التي تجعلهم يكرهون كل ما هو إسلامي، ويعضون عليه أصابع الغيظ؟

أليس هو الشيطان نفسه؟

ألم يحدثنا القرآن الكريم في مواضع عديدة عن موقف الكفار من الخطاب الإسلامي والذي يتأرجح بين الهزء والتكذيب والسخرية، وبين اتهام أصحابه بالسحر والجنون، وبين أن يضعوا أصابعهم في آذانهم، ويستغشوا ثيابهم من أجل ألّا يطرق أسماعهم وعقولهم هذا الخطاب الذي يملك تأثيرًا مدهشًا على من يلقي إليه السمع وهو شهيد.

إن التاريخ يعيد نفسه، والنماذج البشرية هي نفسها على مدار القرون.. وما فعلته مع دعوة رسول اللَّه ﷺ زمن الجاهلية تفعله الآن في القرن الحادي والعشرين، حذوك النعل بالنعل.

وسواء كان العلماني أو الملحد عالمًا مثقفًا، أم جاهلًا أميًّا، فسيان.. إنها ردود الأفعال نفسها.. الكراهية نفسها.. العناد والانفعال والغضب الذي يجاوز حده وهم يجادلون هذا الطرف الإسلامي أو ذاك هو نفسه..

ولطالما رأيناهم على القنوات الفضائية.. لا أدري من أين يأتون بهم.. بعضهم من أمريكا.. وبعضهم من أوروبا.. وآخرون من البلدان العربية نفسها.. ولكنهم جميعًا حالة نمطية مكرورة.. الواحد منهم يشبه الآخر رغم أنهم جاؤوا من أماكن شتى.. الكليشيهات المعلقة على ألسنتهم هي

نفسها.. العبارات المترعة بالجهل بالإسلام عقيدة وشريعة، هي نفسها.. الرفض القاطع في أن يكون الإسلام رؤية سياسية، هو نفسه.. إغماط الجماعات الإسلامية دورها المشهود في الحركات الوطنية وحتى الجهادية هو نفسه.. التغافل عن دور الاستعمار القديم والجديد في تدمير كل ما هو إسلامي، هو نفسه.. بل إن الحماس الشديد للأفكار التي يعتنقونها، ودفاعهم المستميت عنها، هو نفسه كذلك.

ويتمنى المرء وهو يتابع نقار الديكة هؤلاء على القنوات الفضائية أن لو يملك بعض الإسلاميين عشر معشار هذا الحماس، وهم الذين ينافحون عن عقيدة تكنس في طريقها كل ترهات الملاحدة والعلمانيين.

* * *
* *
*

حول عودة الحضارة الإسلامية

يشير المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) في كتابه المعروف (دراسة للتاريخ) إلى حالات كثيرة تشذ فيها الخبرة الإسلامية عن الخضوع لهياكله التنظيرية، ولكنه ينسى أن يشير، وهو يؤكد فكرته باحتمال ابتلاع الحضارة الغربية المتفوقة للحضارة الإسلامية من بين ست حضارات أخرى يرى (توينبي) أنها تكاد تلفظ أنفاسها..

ينسى أن يشير إلى أن الحضارة الإسلامية، من بين سائر الحضارات الأخرى، تتأبى على الفناء ما دامت ترتبط في جذورها بعقيدة خالدة، وأن المسلمين مهما شذوا وبعدوا عن مطالب هذه العقيدة فإنه تظل لديهم صلة ما بها.. وبما أن الحضارة - في جانبها الثقافي - هي تعبير عن خصوصيات الأمم والشعوب، فإن هذه الخصوصيات الباقية ستظل تحفظ للمسلمين (تعبيرهم) الحضاري المتفرد بين الحضارات، وبالتالي تبقي على تميّزهم الحضاري.

ويجب أن نعترف - ابتداء - بأننا في حالة وهن حضاري، وأن الحضارة الغربية المتفوقة قد تأتي عليه بحكم قوانين الحركة التاريخية. ولكن هذا لا يعدو الجانب التاريخي لخبرة الأمة، ويبقى هناك الجانب العقدي المتجذر في كتاب

وسنة رسوله ﷺ، والذي سيظل يحتفظ - بوعد من اللَّه سبحانه - بخصائصه وثوابته ومقوماته.. وبالتالي قدرته على بعث الأمة من جديد لكي تمارس دورها المنوط بها: أمة وسطًا تشهد على مسيرة البشرية ويكون الرسول ﷺ شاهدًا عليها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وبغض النظر عن الزمن الذي يتطلبه هذا الانبعاث، وموعده، فإنه آتٍ لا محالة بحكم قوانين الحركة التاريخية نفسها، وحاجة البشرية إلى المنهج الذي يخرجها من المأزق الذي تعانيه، ويقودها إلى الصراط، ويمنحها الحضارة التي تليق بإنسانية الإنسان وكرامته التي قدّرها اللَّه سبحانه له يوم خلقه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فإذا كان منطوق النبوات هو تعديل الوقفة الجانحة للأمم والشعوب ومنحها الصراط ومنهج العمل، وإذا كان الإسلام هو خاتم النبوات، والمنهج المكتمل الملائم تمامًا للإنسان والبشرية، وكانت هذه قد شذت عن الطريق، فإن المنطوق نفسه يقتضي عودة هذا الدين أو المنهج لحكم الحياة وبناء الحضارة التي تستمد نسغها وبنيتها من مفردات هذا المنهج

لكي تكون - بحق - الحضارة الملائمة للإنسان والبشرية.

إن كبار قادة الفكر الغربي من أمثال مارسيل بوازار ورجاء غارودي وليوبولد فايس (محمد أسد) وروم لاندو ولورا فاغليري وكويلر يونغ ومونتغمري وات وإميل درمنغهم وغوستاف لوبون وموريس بوكاي.. وغيرهم كثيرون يعترفون ويؤكدون هذه الحقيقة، وأن الإسلام والحضارة التي يعد بها، سيجيئان لكي ينقذا البشرية التي تفرقت بها السبل وقادتها إلى الطرق المسدودة، وأن ما يتميز به هذا الدين من لقاء الوحي بالوجود، واللّٰه سبحانه بالعالم، والسماء بالأرض، والآخرة بالدنيا، والروح بالجسد، والفرد بالجماعة، والعدل بالحرية، والضرورة بالجمال، والمنفعة بالقيم.. إلى آخر الثنائيات التي اصطرعت في المذاهب والأديان الأخرى، وتصالحت وتناغمت في الإسلام، هذه الميزة ستكون مفتاح الخلاص والدافع الملحّ الذي سيجعل البشرية تنتظر القادم الجديد وترحّب به.

ويقف الغربيون طويلًا عند مسألة العلم والتكنولوجيا، وكيف أن الإسلام لا ينفيها، بل بالعكس، يقبلها ويحفز عليها وينميها، ولكنه لا يتركها على عواهنها حيث يصير منطوق « القوة » المجردة عن القيم هو الحكم الفصل في مصائر البشرية.

إن العلم والتكنولوجيا يوم تلتزمان بالضوابط الدينية فإنهما ستكونان تمامًا في خدمة الإنسان والحياة، وليس العكس فيما شهده ويشهده العالم عبر القرون الأخيرة.

ولهذا السبب، فضلًا عن الأسباب التي أشرنا إليها بإيجاز، ستنبعث حضارة الإسلام مرة أخرى مهما طال السرى وادلهمّت الخطوب.

* * *
* *
*

الحضور الإلهي المطلق

يتساءل البعض قائلًا: إذا كان التاريخ يتشكل حسب سنن أوجدها اللَّه تعالى في خلقه، فما هو دور الإرادة الربانية، مع وجود هذه السنن، في صناعة التاريخ؟ ألسنا - بذلك - نقترب من بعض (المؤمنين الساكنين) القائلين بأن اللَّه ﷻ، كصانع ساعة متقنة. أودع فيها نظامًا دقيقًا ولكنه بعد ذلك تركها لتعمل بمقتضيات صنعها وصيانة مستخدميها؟

والجواب أن هذه مسألة شديدة التعقيد تتداخل مع قضية القدر والحرية في المنظور الإسلامي، والديني عمومًا، ولكنها في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ - على أية حال - تتلقى دفقًا من الإضاءات وحالات التوازن والتكامل بين إرادة اللَّه سبحانه وفاعليته في التاريخ وبين الجهد البشري، فليس ثمة في المنظور الإسلامي تعارض أو تضاد على الإطلاق؛ حيث يعمل الإنسان في التاريخ وفق أكثر من مستوى، وليس مستوى واحدًا.. فمثلًا:

١ - الالتزام بهدْي اللَّه المتمثل في الوحي وإعادة صياغة الحياة وفق مفرداته. هاهنا حيث يلتقي المنهج الإلهي بالفعل الإنساني في صياغة التاريخ.

٢ - التمرّد أو الانشقاق أو العصيان برفض المنهج الإلهي

واعتماد مناهج وضعية؛ حيث يرتجل الإنسان فعله التاريخي - إذا صحّ التعبير - وهو يحمل حرّيته المطلقة في خياره هذا وعليه - بالتالي - أن يتحمل تاريخيًّا نتائج موقفه.

٣ - السنن الإلهية في النفس والطبيعة تنبض دائمًا بالحضور الإلهي خلْقًا وشهودًا، فليس ثمة في المنظور الإسلامي غياب لهذا الحضور بحجة أن آليات السنن قد استكملت أسبابها وأن دولابها أخذ يدور بعيدًا عن الرقابة الإلهية!

إننا بمجرد أن نرجع إلى كتاب اللَّه فإننا سنجد أنفسنا - عبر شبكة من الآيات البيّنات - قبالة هذا الاتصال ذي (الديمومة) الأبدية بين اللَّه سبحانه وبين خلقه، وبينه وبين النواميس التي أريد لها أن تنظم صيرورة هذا الخلق.

٤ - والأسباب ليست نهائية وهي لا تترتّب - بالضرورة - على مسبباتها وفق عقيدة حتمية تخضع النتائج للمقدمات، ومن ثم فإننا نجد كيف أن المعجزة، التي هي خرق للناموس في الأنفس والآفاق، كثيرًا ما تجيء لكي تضرب هذا التصوّر الخاطئ. فاللَّه - جلّ في علاه - هو فوق التاريخ وليس في التاريخ. ولكنه في المنظور الإسلامي المتوازن لا يغيب - سبحانه - عن الصيرورة التاريخية التي يهيمن عليها على مستوى الفعل والزمن بدءًا بنبض القلب الذي يخفق

بنواميس البيولوجيا والفزيولوجيا، ولكنه في الوقت نفسه يظل معلّقًا بين إصبعي الرحمن.. وانتهاءً بمسارات النجوم والسدم والمجرات الكبرى التي تخضع لنواميسها الخاصّة المنضبطة التي ركزها اللَّه فيها، ولكنها - في الوقت نفسه - تنفجر حينًا، وتتمدّد حينًا آخر، وتلتمّ حينًا ثالثًا بكلمة اللَّه وقيمومته التي تقول للأشياء والموجودات: كوني، فتكون، مرورًا بخفقان البروتونات والنيوترونات والشحنات والفوتونات في الجزيئات والذرات، والتي تبيّن في معطيات الفيزياء الأكثر حداثة كم أنها تنطوي على الاحتمالات التي يصعب معها إخضاعها (للنظام) بشكل مطلق.

٥ - وأخيرًا، وليس آخرًا، وبالإيجاز المطلوب، لنتذكر كيف أنه في المنظور القرآني، ما من شيء إلّا ويسبّح بحمد اللَّه، ونحن لا نكاد نفقه هذا التسبيح الذي ربّما يريد أن يقول لنا بأن الساعة الكونية لا تعمل بمعزل عن اللَّه (على طريقة الأكنوستيين) لأنها صنعت بإحكام، ولكنها تظل تخفق قبالة الحضور الإلهي الجليل الذي يمضي لكي يغطي بفاعليته وقيمومته الكون كله: المجرات والسدم والنجوم.. مرورًا بتخلّق الأجنة في بطون الأمهات، وقيام الدول والحضارات واتساعها وانكماشها وأفولها، وصولًا إلى حبل الوريد الذي ينبض فينا، ولله - جلّ في علاه - « المثل الأعلى ».

حضارة التجدّد والانبعاث

يتساءل البعض قائلًا: إنه لم يقم في تاريخ البشرية دليل مؤكد على أن حضارة ما سقطت وانهارت ثم عادت إلى الظهور مرة أخرى (ولو بصيغ ومعطيات مختلفة)، فما هو الدليل التاريخي العقلي (وليس الاعتقادي فحسب) على أن الحضارة الإسلامية قادرة على إحياء نفسها والانبعاث كرات أخرى؟

والجواب: أننا إذا اتفقنا على أن أية حضارة تتميز عن الأخريات بدوافعها وتصوراتها وأهدافها، وبالتالي بملامحها المستقلة (التي قد تلتقي مع الحضارات الأخرى في عدد من مفرداتها، ولكنها في نهاية الأمر تحمل نمطها المستقل)، إذا اتفقنا على ذلك، وهي مسألة يكاد يلتقي عليها معظم فلاسفة التاريخ ودارسو الحضارات، قلنا بأن حضارة الإسلام قديرة على الاستعادة للأسباب التالية وبإيجاز تام:

أولًا: حضارة الإسلام هي انعكاس بالضرورة للتأسيسات المركزية لكتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ. وبما أن هذه التأسيسات قدرت بإرادة اللّه وجهود الأجداد، على أن تحمي نفسها من التحريف بشتى صيغه، فإنها ستظل قديرة على تشكيل نسقها الحضاري المتميز القائم على قاعدتي

الوحي والوجود معًا.

ثانيًا: أن الفعل الحضاري في الإسلام هو فعل إيماني بالضرورة، بمعنى أنه يعكس ضرورات الإيمان ومطالبه في مستوياته العقدية والتشريعية والسلوكية، ومن ثم فإن الجماعة أو الأمة المسلمة، بمجرد أن تتهيأ لها الأسباب، ستجد نفسها ملزمة بنسج فعلها الحضاري المتميز الذي يستمد نسغه وتكوينه من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ. فالمسألة - إذن - ليست خيارًا، ولكنها نتيجة محتومة تترتب على مطالب الإيمان.

ثالثًا: أن وظيفة المسلم في العالم هي بالمنطوق القرآني وظيفة استخلافية عمرانية، أي وظيفة حضارية، ويصعب الفصل - على ذلك - بين نشاط المسلم في شتى مستوياته وبين السياق الحضاري العام الذي يعمل فيه.

رابعًا: على المستوى التاريخي الصرف هناك شواهد وحالات واقعية عديدة ازدهرت فيها حضارة الإسلام، أو تجدّدت في هذه البيئة أو تلك، وفي هذه المرحلة أو تلك، رغم أو بموازاة حالات التخلّف والانكسار في بيئات ومراحل أخرى.

وكلّنا يذكر ما حدث في أعقاب سقوط الخلافة العباسية ودمار قاعدتها في بغداد (عام ٦٥٦هـ). لقد كانت على

درجة من الهول خيّل للكثيرين معها أنه لن تقوم للإسلام أو لحضارته قائمة.. ولكن الذي حدث بعد ذلك أمران يثيران الدهشة، **أولهما**: أن الحضارة الإسلامية المنكسرة في بغداد، انسحبت إلى بيئات أخرى: الشام ومصر والمغرب، وازدادت تألقًا هناك؛ حيث ظهر عمالقة الفكر والثقافة الإسلامية من مثل ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم والسيوطي وابن حجر والسخاوي.. وغيرهم كثيرون.. كما شهد العصر المملوكي في مصر والشام ازدهارًا عمرانيًّا لا تزال آثاره باقية حتى اليوم.

وأما ثاني الظاهرتين فهي تحوّل المغول الوثنيين أنفسهم، بأجنحتهم الثلاثة: الإيراني - العراقي، والهندي، والقفقاسي، إلى الإسلام وإرفاد حضارته بالمزيد من الطاقات الشابة المبدعة، فيما دفع ابن خلدون إلى صياغة تحفظه المعروف بخصوص أحد مبادئه التاريخية، وهو أن المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب..

ودائمًا كانت الأمة الإسلامية، وهي تنكسر أو تنسحب في هذه الجبهة أو تلك، تجد انبعاثها وتجددها وديمومتها في جبهات جديدة.. وتلك هي إحدى الملامح الأساسية لتاريخ هذه الأمة.

واليوم: فإن الخطاب الإسلامي يزداد تألقًا في الساحة

الغربية نفسها، ويكسب المئات والألوف من أبناء الشعوب الغربية، بما ينطوي عليه من توازن مدهش بين قيم الروح والمادة، ومن وعد مؤكد بتحرير الإنسان من سائر صيغ الطاغوتية والصنمية والقهر والاستلاب.

* * *
* *
*

من أجل ذلك لا بدّ أن نعود

الفارق بيننا وبينهم أنهم يرون الحياة الدنيا البدء والمنتهى وخاتمة المطاف، وأننا نراها ذرة لا تكاد ترى تسبح في ملكوت الكون الكبير.. مجرد خطوة عابرة إلى الأبدية..

الفارق بيننا وبينهم أنهم دنيويون حتى النخاع.. مستعدون أن ينشبوا أظافرهم وأسنانهم في لحم الأرض وعظمها من أجل امتلاكها والهيمنة عليها.. وهم من أجل ذلك يتحولون إلى وحوش وضوارٍ لتمزيق أجساد الآخرين بأي أسلوب كان، وبغض النظر على الإطلاق عن مدى تناقضه مع منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية.

والطرائق التي استعمر بها الغربيون مساحات واسعة من عالمنا الإسلامي، والأساليب التي اعتمدوها لقهر شعوب هذا العالم، وإدامة الهيمنة على مقدراته تعكس بوضوح كامل هذا اللهاث المحموم وراء إغراءات دنيا عابرة لا تساوي شروى نقير.

عندما يتسلّمون قيادة العالم يسومون مستضعفيه سوء العذاب.. يسخرونهم لتحقيق مصالحهم كما تسخر الأنعام.. يعتمدون أي أسلوب، مهما كان سافلًا ومناقضًا لإنسانية الإنسان لضمان إمساكهم برقبة العالم، وإرغام شعوبه

المستعبدة على أن تدرّ ضرعها في أفواه المستعمرين..

أربعمائة سنة، تلقينا فيها منهم ما يشيب لذكره الولدان.. وهم لا يزالون حتى اللحظات الراهنة، يمارسون الجريمة الكبرى بالضراوة نفسها: اغتيال إنسانية الإنسان..

هذا الالتصاق الزائد بالأرض.. هذه الرؤية المنحسرة للحياة الدنيا.. هذا التعبّد الأسطوري للمنفعة.. وهذا الاندفاع الذي لا يرحم وراء اعتماد « القوة » لتحقيق « المصلحة ».. هو نفسه منذ أربعمائة سنة أو تزيد..

يكفي أن نشاهد فيلم (عمر المختار) لكي نرى بأم أعيننا ما فعله الإيطاليون الفاشست بالليبيين.. يكفي أن نقرأ كتاب الزنجي الأمريكي (ألِكس هيلي): (الجذور) لكي نعرف ما فعله المستعمرون الأمريكان بالزنوج والأفارقة الذين انتزعوا من ديارهم وسيقوا كالقطعان إلى المزارع والمصانع الأمريكية.. يكفي أن نتابع التقارير المرعبة التي كتبت عن مأساة المدينتين اليابانيتين المنكوبتين لكي نعاين ما فعلته القوة الذرية الأمريكية بهيروشيما وناغازاكي..

الشواهد كثيرة قد تملأ مئات المجلدات وألوفها.. وقد قيل فيها الكثير على مستوى الصحف والمجلات والمؤلفات والتقارير ووسائل الإعلام المختلفة، ولكني أريد أن أقف لحظات عند زاوية منها، وهي أن حضارة

الغرب المتفوقة علميًّا وتقنيًّا وخدميًّا وتنظيميًّا.. إلى آخره.. لا يمكن بحال من الأحوال أن تغطي على البعد اللاإنساني لصانعي هذه الحضارة، وعلى تسخير قدراتها الأسطورية لتحقيق « منفعة » بقع محدودة في نسيج العالم على حساب المساحات الأوسع.. وأنه لو قدّر لهذه الحضارة أن تسلم زمامها للقيادة « الصالحة » التي لا تريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا.. لكان يمكن أن تحقق للبشرية على إطلاقها، الخير والسعادة والرفاهية في أبعادها كافة.

ومرة أخرى.. ذلك هو أساس المشكلة، وبيت الداء، وسبب الأسباب.. فلأنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر، ويرون في الحياة الدنيا الفرصة الأولى والأخيرة، وليس ثمة شيء وراءها على الإطلاق.. اندفعوا وراء إغراءات المصلحة الصرفة، واعتمدوا - لتحقيق ذلك - منطوق القوة المجردة التي لا يردعها ضمير، ولا بعد إنساني أو ديني أو أخلاقي.. ولأنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر.. علوا في الأرض وأفسدوا العالم.

ولن ترجع الأمور إلى نصابها الحق.. ولن يقوم الميزان بالقسط في هذا العالم.. ولن يسود حق وعدل، ويسعد الإنسان، ويحيا الحياة الطيبة التي أريدت له يوم خلقه، ما لم يتسلّم قيادة العالم رجال يؤمنون باللّه واليوم الآخر

ولا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

من أجل ذلك كان لا بدّ أن ترجع الأمة المسلمة.. الأمة الوسط.. لقيادة العالم، وتسلّم أعنة الحضارة كي تكون شاهدة على البشرية، مرشدة لخطاها، حافظة للتوازن المطلوب بين الحكمة والقوة.. محترمة إنسانية الإنسان، ملتزمة ضوابط المنظومة الخلقية والدينية.. آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، تمامًا كما وصفها اللّه سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

* * *
* *
*

من الصعب أن أكون سعيدة!!

بكلمات قلائل تختصر الممثلة الأمريكية المعروفة (مارلين مونرو) وضعية المرأة في الغرب، تلك التي يراد للمرأة الشرقية المسلمة أن تحذو حذوها إذا أرادت أن تتحرّر فعلًا!!

إنه المنطق المعكوس بكل المعايير.. فالمرأة في البيئة الإسلامية تعيش في الحالات الأكثر اتساعًا وشيوعًا، أفضل أوضاعها الإنسانية على الإطلاق.. وهي - ككائن متميز - تتعزز مكانتها وتزداد احترامًا وتقديرًا داخل المنظومة الأسرية وخارجها على السواء. وبنظرة سريعة على (وضع) المرأة المسلمة في عالم الإسلام، وبرجوع كل واحد منا إلى النساء اللواتي أتيح له التعامل معهن : الأمهات والجدّات والأخوات والبنات والطالبات والموظفات والمتخصصات والعاملات، يتبين مصداقية هذا الذي نقول.

هنالك حالات شاذة بكل تأكيد.. ولكنه الشذوذ الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها، والقاعدة هي أن المرأة المسلمة، حتى في عهود انحطاطنا الحضاري، كانت ذلك الكائن المتميز، والمكرم، الذي يحظى بالتقدير والاحترام.. ولا علينا من التزييف الذي يمارسه الإعلام، وبخاصة

السينما والتلفاز، ومع الإعلام حشد من الكتاب والمفكرين الذين انسلخوا عن إسلاميتهم فأصيبوا بعمى الألوان، أو بالرمد في أفضل الحالات؛ حيث تغيب الرؤية الصائبة، وحيث تصير الحالات الاستثنائية هي القاعدة التي يقاس عليها، وحيث تصبح الخبرة الغربية، حتى في أردأ حالاتها، المثل الأعلى الذي يهيم به هؤلاء.

وما لنا ألّا نرجع إلى كلمات (مارلين مونرو) التي تختصر الكثير مما يمكن أن يقال في هذا المجال: « من الصعب أن أكون ممثلة، وأيضًا من الصعب أن أكون سعيدة. وأنا مجرد جسد تمتلكه الكاميرا. أنا ضحية لكوني نموذجًا جنسيًّا مطلوبًا من الجمهور فقط لهذه الصورة. فأنا سجينة لهذه الشخصية الجنسية المثيرة والمشهورة. الجمهور لا يرى بي أبدًا صورة لامرأة جدّية. الكاميرا تجبر الفنانة على الظهور بمشاهد شبه عارية فقط إرضاءً للجمهور، بغض النظر عما أفكر به، أو ما هي حقيقتي بالفعل ».

ليست السينما وحدها، ولكنه التلفزيون والمجلة والصحيفة؛ حيث تقوم المرأة بدور البطولة في الإعلان الذي يسعى لتوظيف البعد الجسدي للمرأة لتحقيق المنافع العاجلة والربح السريع.

أين احترام المرأة ككائن متميز أريد له أن يؤدي دورًا

إنسانيًّا أكبر بكثير من مهمة التوظيف الجسدي لكسب الجمهور.. ونقود الجمهور؟

ومن أجل أن يتبين لنا حجم المرارة التي تعانيها المرأة هناك.. وهاهنا - كذلك - في البيئات الإسلامية التي تلاحق الخبرة الغربية حذوك النعل بالنعل.. فإن لنا أن نتابع حشودًا من النساء الغربيات انتهى بهن المطاف إلى الانتماء لهذا الدين، وكان جوابهن دائمًا عن السبب الأساس الذي يكمن وراء هذا الانتماء، هو أنهن في ظلال هذا الدين فقط، اكتشفن إنسانيتهن الضائعة، وتميّزهن المهدور.. ووجدن السكينة والرحمة والرضا والاطمئنان والاحترام والحنوّ والتقدير..

ولنا أن نتساءل: أيهما أكثر مصداقية، تلك الحشود من النساء الغربيات اللواتي انتمين لهذا الدين، وعثرن - بذلك - على سعادتهن الضائعة.. أم ادّعاءات الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون التي تخشى على واحدة من أكثر الفرص تحقيقًا للربح المادي السريع على حساب المرأة وكرامتها؟

وما لنا ألّا نرجع إلى بيئتنا الإسلامية نفسها؛ حيث ظاهرة الفنانات التائبات تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم.. وحيث شهاداتهن بأنهن وجدن أنفسهن في هذه التوبة، تقطع ألسنة الأدعياء، وتقدم الردّ الواقعي المنظور والمقنع على أن الحالة

الوحيدة للمرأة في أقصى درجات تميزها، لن تتحقق إلّا في ظلال هذا الدين الذي رفعها إلى أعلى مصاف، ومنحها الأمن والسكينة والسعادة والرضا، فيما يشهد به واقع الحال قبل أن ينطق به لسان المقال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

* * *
* *
*

شيء عن كرة القدم العربية

عجيب أمر العرب عبر زمننا هذا في كل شيء.. بما في ذلك هوسهم الذي تجاوز كل حد بكرة القدم على المستويين الرسمي والشعبي.

أنا شخصيًّا من عشاق كرة القدم ولا تكاد تفوتني لعبة (كبيرة) في أوروبا.. أتابعها بشغف، وأقضي معها أسعد الأوقات بعيدًا عن الهموم اليومية المتراكمة كالجبال.. إذ لا بد من الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت.. والجهد الفكري - على وجه الخصوص - بأمس الحاجة إلى محطات للراحة والاسترخاء لكي يقدر على مواصلة الطريق.

والمقصود غير الحالة في حدودها المعقولة، وهو هذا الهوس المحموم الذي تهدر في سبيله أوقات وجهود وأموال لو وظف جانب منها في حاجات الأمة العمرانية والخدمية والحيوية والتنموية لفعل الأفاعيل، لملأ فراغًا ملحًّا نحن بأمس الحاجة إليه في زمن ما يسمى بالسباق الحضاري الذي يضيع فيه ويخرج من الساحة من لا يركض جيدًا، ويوظف طاقاته جميعًا للوصول إلى خط النهاية قبل الآخرين.

وكلنا رأى وسمع بأم عينيه وأذنيه ردود أفعال الدول

العربية الرسمية والشعبية على النتائج التي تحققها فرقها لكرة القدم إيجابًا أو سلبًا.

عندما ينتصر الفريق تكون الفرحة الكبرى التي تتضاءل دونها فرحة الأمة بعبور القناة عام (١٩٧٣م).. وعندما يهزم يكون الحزن العميق الذي تتضاءل دونه أحزان الأمة لهزيمة (١٩٦٧م).

يبدو أن الانتصارات الكروية وفق منطوقنا المعكوس هذا تفوق الانتصارات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أصبحنا عاجزين عن تحقيقها.. وأن الهزائم الكروية تفوق الهزائم السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تعوّدنا عليها.

في الحالة الأولى تنطلق المسيرات في الشوارع، ويخصص الإعلام مساحات واسعة جدًّا من معطياته للتهليل والتكبير للإنجاز الكبير.. وفي الحالة الثانية تكاد الأعلام أن تنكس حزنًا على ما جرى.

وحتى لا نقع في الخطأ يجب أن نسارع إلى القول بأن هذه الحالة بوجهيها معًا لا تقتصر على الأمة العربية، وإنما هي حالة عامة تتعاطى معها كل شعوب وحكومات العالم المتقدم والمتأخر على السواء.

لكن الفارق المحزن أنهم هناك جادون حيثما تطلب الأمر جدا في هذا الجانب أو ذاك من شؤون الحياة الاقتصادية

والتنموية والسياسية والعسكرية، وأن هذا الذي تشهده سوح كرة القدم، والأنشطة الرياضية عمومًا هناك، لا يعدو أن يكون مساحة محدودة لا تكاد تؤثر بحال على مستوى فاعليتهم في مجالات البناء.. أما نحن فإننا بأمس الحاجة إلى المزيد من الجد والإيجابية للتعويض، أو لموازنة هذا الذي نمارسه في مجال الترفيه، وخاصة ونحن بأمس الحاجة - كذلك - إلى توظيف كل إمكاناتنا وقدراتنا للجد والبناء وتقليل الفارق بيننا وبين الغرب المتفوق بما لا يكاد يقاس.

والفارق المحزن - كذلك - أنهم حوّلوا أنشطتهم في كرة القدم إلى فرصة للربح، وإرفاد الدخل القومي لحكوماتهم بالمزيد من الإيرادات.. أما نحن فإن ما ينفق على أنشطتنا الكروية أصبح يمثل عبئًا كبيرًا، ويستنزف من ميزانيات دولنا العربية الكثير، بما في ذلك استدعاء المدربين الأجانب، واللاعبين المحترفين بأجور أسطورية، دون أن يكون لهذا أو ذاك مردود يذكر وبخاصة عندما تلتقي الفرق العربية فرقًا أوروبية أو لاتينية؛ حيث يبدو الفارق بين الطرفين كالفارق الحضاري بين الشرق والغرب.. هوة شاسعة عميقة يصعب عبورها، حتى لو أنفقنا ملايين الدولارات، ويكاد يصبح من المستحيلات..

* * *

ولسوف يسقط خيارهم العسكري

سوف نسقط الخيار العسكري للدول الكبرى، ونخترق مجتمعاتها من الداخل بقوة العقيدة، والقدرة على كسب الآلاف منهم إلى هذا الدين.

ليست أماني ولا أحلامًا.. ليست هروبًا من ضغوط الواقع وهزائمه وانكساراته باتجاه الخيال.. ولكنه الأمر المحتوم الذي لن يحدث - بالتأكيد - بين ليلة وضحاها، ولكن على المديات الزمنية التي قد تمتد وتتطاول..

زحف هادئ من الداخل بقوة المشروع الإسلامي ووعده بخلاص الفرد والجماعة، وتهافت المذاهب والنظم والمشاريع الكافرة والعلمانية والدينية المحرفة..

فلو أننا تابعنا ما تشهده البلدان الغربية من انتماء العديد من المسيحيين واليهود والعلمانيين والملاحدة إلى الإسلام.. يومًا بيوم.. فيما تعلن الصحف وأجهزة الإعلام عن جانب محدود منه، بينما تغيّب - لسبب أو آخر - جوانب أخرى، لرأينا العجب العجاب من هذا الإقبال المتزايد على الإسلام، رغم الحواجز والضغوط، وحصار المصالح، وثقل التقاليد.. إقبال من شرائح شتى وانتماءات متنوعة: ساسة وإعلاميين وفلاسفة ومفكرين وأدباء وتربويين وقادة رأي ودبلوماسيين

وفنانين ورياضيين.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها - على سبيل المثال - تشير إحصاءات السنوات الخمس الأخيرة إلى أن عدد المنتمين إلى الإسلام من الرجال والنساء في العام الواحد بلغ عشرين ألفًا.

دفق يثير الدهشة والإعجاب.. لكن أسبابه واضحة بينة، فيما يقوله ويصرّح به المنتمون أنفسهم، والذي هو بحاجة للمزيد من الدراسات، ولحسن التوظيف الإعلامي.. ليس للكشف عن عناصر الجذب والقوة في هذا الدين فحسب، وإنما لتحفيز الظاهرة وإغراء الآخرين بها كذلك.

وحتى أولئك المفكرون والأدباء والفلاسفة والكتاب الكبار في الغرب، ممن لم ينتموا لهذا الدين، قالوا كلمتهم القاطعة الحاسمة، في أن الإسلام والمشروع الحضاري الإسلامي، سيمارسان في المستقبل القريب دورًا مؤكدًا في إعادة صياغة العالم والمصير البشري، فيما سيعين البشرية على مجابهة محنتها، ويمنحها الخلاص، ويتجاوز بها الطرق المعوجة والمسدودة صوب الصراط، ويخرج بها من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور المذاهب والأديان إلى عدل الإسلام.

ولقد انتبهت بعض القيادات الغربية إلى ما اعتبرته

« الخطر القادم »، وراحت تبذل ما في وسعها، معتمدة كل الأساليب الأخلاقية واللاأخلاقية، المبررة وغير المبررة، للحدّ من الظاهرة، فما زادتها إلّا انتشارًا!

إن ما حدث في بعض البلدان الغربية بالنسبة لظاهرة (الحجاب)، وتزايد الدعوة إلى التمييز العنصري، والحدّ من الهجرة، وتضييق الخناق على الغرباء، وطردهم إذا اقتضى الأمر.. والحملات الإعلامية المسعورة ضد الإسلام وكتابه ونبيه ورجالاته وتاريخه وحضارته.. بما فيها رسوم السوء الكاريكاتيرية في الدانيمارك، بل وحتى الوقوف ضد محاولة تركيا (المسلمة) الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وغيرها كثير من الممارسات، زادتها واقعة الحادي عشر من أيلول عنفًا وضراوة.. ما هي في بعدها الحقيقي إلا ردّ فعل واضح إزاء تحدي الانتشار الإسلامي داخل المجتمعات الغربية.

ولكن، ورغم كل هذا الذي جرى ويجري وسيجري، فإن ظاهرة الانتشار الإسلامي ماضية إلى أهدافها بوعد من اللّه سبحانه، وبأذرع العاملين من الدعاة، وبقوة هذا الدين وسلامة مشروعه، وعمقه الحضاري الذي يعرف كيف يحتوي التكنولوجيا والعلم والتقدم ولكن وفق منظومة القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية التي فرّط بها الغربيون فساقوا البشرية إلى المزيد من التعاسة والاصطراع والخوف والشقاء..

لن نخترقهم بقوة السلاح.. على الأقل في المديات الزمنية (التاريخية) المنظورة.. ولكننا سنغزوهم بقوة عقيدتنا ومشروعنا الحضاري.. ولن يكون المستقبل إلّا لهذا الدين.

* * *
* *
*

مزيج السوء

تنبض في عروق الحضارة الغربية المعاصرة جملة من المذاهب والاتجاهات والممارسات، تشكل في مجموعها مزيجًا من السوء ما عرفته أو ذاقته حضارة من الحضارات.

وعلى تفوق هذه الحضارة في جوانب عديدة: العلم والتكنولوجيا والخدمات والقوة والعمران والثراء.. فيما ينضوي تحت خانة (المدنية) المعنية بالوجه المادي للحضارة.. فإنها تعاني في الوقت نفسه من جملة من الأخطاء الكبيرة والانحرافات وعوامل الشد التي تجعلها لا تتواءم والمطالب البشرية، أو تستجيب لإنسانية الإنسان.

وبمقدور أي دارس لهذه الحضارة، يملك القدرة على تجاوز الظاهر والإيغال في العمق البعيد، أن يكتشف خلطة السوء التي بسببها تتعذب البشرية في ظلال هذه الحضارة، وتسام الأمم والشعوب المستضعفة الخسف والظلم والهوان.

وخلطة السوء هذه هي مزيج من معطيات وإفرازات العقل والوجدان الغربي على مدى عشرات القرون، بدءًا بأثينا وروما وانتهاء بلندن وباريس وواشنطن.

إننا نجد في نبضها الأبيقورية التي تتعبّد اللذة، والمكافيلية

التي تبرّر الانتهازية، والهوبزية التي تعتمد جبروت القوة، والداروينية التي تجعل البقاء للأقوى، والفرويدية التي تطلق السراح للنوازع الجنسية، والوجودية التي تدع الحبل على الغارب، والشيوعية التي تنفي الحرية الفردية، والشوفينية التي تلغي الأمم والشعوب، والذرائعية التي تتابع سير المنفعة.. وإلى جانب هذا كله هناك المركزية الأوروبية المنسحبة عبر القرنين الأخيرين إلى أمريكا، والتي تجد في الغرب وحده قطب الرحى، وسيد العالم، ومركز الكون، ومنطلق الحضارات.. وما الشعوب والقارات والحضارات الأخرى سوى ظلال باهتة تدور في فلك الحضارة الغربية.. تقلدها وتأخذ منها وتسبح بحمدها صباح مساء..

ما الذي تدّل عليه وتسوق إليه خلطة السوء هذه، سوى المزيد من تعاسة الإنسان، وتنازله عن إنسانيته؟ والمزيد من استعباد القوي للضعيف، والمزيد من ثراء الأثرياء وفقر الفقراء، والمزيد من التحلل الخلقي والسلوكي، والمزيد من الإباحية الجنسية، والمزيد من اعتماد منطق القوة لسحق الآخر وإلغائه من الوجود، والمزيد من الانتهازية التي تبرّر كل محظور، وتتجاوز في تعاملها مع الظواهر والحالات منظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية، والمزيد من الانغماس في الرذائل والشهوات، والمزيد من النفعية

التي لا تضبطها القيم الدينية، والمزيد من طغيان الجماعة وإلغاء الفرد، أو تجبر هذا وإلغاء الجماعة.. ثم، وتلك ثالثة الأثافي، منح الغرب، باعتباره مركز العالم وسيد الأرض، الحق المطلق في رسم خرائط العالم، والتحكم بمصائر الدول والجماعات والشعوب؟

لعل غياب البعد الديني الأصيل في بنيان هذه الحضارة هو السبب في هذا كله.. فالدين هو الأساس.. هو الضابط والموجّه.. هو الذي يتكفل بتحقيق التوازن المطلوب للمسيرة البشرية بين الحاجات الروحية والمطالب المادية.. هو الذي يمنعها من الانجراف بعيدًا باتجاه الشهوة والقوة والمنفعة.. هو الذي يمنحها الرؤية الصائبة التي تمنح الحياة البشرية مغزاها الأصيل، والوجود البشري وظيفته الكبرى.

هذا هو الذي يجعل المشروع الحضاري الإسلامي البديل ضرورة من الضرورات، ليس فقط للأمة الإسلامية، وإنما للبشرية جمعاء.. لأنه سيتجاوز بها كل هذه الحفر والانحرافات، وسيخرج بها إلى الصراط الذي تتضاءل دونه السبل المعوجة الملتوية، التي سلكتها حضارة الغرب ولا تزال.

والذي يقول هذا ويؤكده صباح مساء، ليس المسلمون وحدهم، وإنما قادة الفكر والحياة في الغرب نفسه من

العلماء والفلاسفة والأدباء والساسة والإعلاميين.. أولئك الذين خبروا جيدًا مزيج السوء هذا الذي تتشكل به حضارتهم، والذي هو بأمسّ الحاجة إلى ثورة تطهير شاملة تعيد الأمور إلى نصابها الحق، ولن يكون هذا إلا بالمشروع الإسلامي.

باختصار شديد، وكما يقول المفكر الفرنسي المسلم (رجاء غارودي): « إن المشكلة كونية ولا بد للجواب إلّا أن يكون على المستوى الكوني » وبعقيدة (**لا إله إلا اللّه**) التي تنفي كل صيغ القهر والابتزاز والاستلاب والعبودية والحتميات.. وتحرّر الإنسان والبشرية.

* * *
* *
*

من أجل ذلك تنزّل هذا الدين

في العلوم الصرفة والتطبيقية يبدو الزمن عاملًا أساسيًّا في النضج والتقدم بحكم قانون تراكم الخبرة.. هذا ما شهدته علوم صرفة كالفيزياء والفلك والكيمياء وعلوم الحياة والأرض والهندسة والرياضيات.. فضلًا عن العلوم التطبيقية.

أما في حقول المعرفة الإنسانية فالأمر يختلف؛ إذ قد يكون هناك تنام في الخبرة، وقد يكون التوقف والسكون وربما الرجوع إلى الوراء.

هنالك - على سبيل المثال - شعراء في زمن بعيد كانوا أقدر بكثير - وبكل المعايير النقدية - من العديد من الشعراء المعاصرين.

وقس على ذلك حلقات شتى في المعارف الإنسانية كانت كشوفها في زمن مضى أكثر خصبًا وأعلى قيمة مما شهدته القرون التالية.

والحكم نفسه ينسحب على العقائد والمذاهب والفلسفات، فلا يعني مرور الزمن - بالضرورة - أن فلسفة أو مذهبًا ما، نسجت خيوطهما في القرن العشرين، أكثر نضجًا واكتمالًا مما نسج في قرون خلت..

لقد تساقطت المذاهب الوضعية، والعقائد الشمولية، الواحدة تلو الأخرى، وانسحبت معظم الفلسفات إلى رفوف المكتبات وزوايا المتاحف لكي تكون مجالًا لدراسات الدارسين دون أن يكون لها أي ارتباط، بأي شكل من الأشكال، في صياغة واقع الحياة أو إعادة صياغته.

بعض المذاهب والعقائد ادعى أصحابها في لحظة نشوة كاذبة، بسبب اكتشاف حقيقة من الحقائق، أنها عقائد علمية، نهائية، لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، كالذي فعله ماركس وأنغلز في تسمية كشفهما بالاشتراكية العلمية التي تمثل سقف العالم والتاريخ حيث لا تبدّل ولا تحوّل بعدها.. وكالذي ادعاه هتلر في (كفاحي) بأنه ينوي إقامة امبراطورية الألف عام استنادًا إلى نظريات (فختة) وفلسفة (هيغل) المثالية، وإلى القدرة الجرمانية المتميزة التي لا يقف أمام إرادتها شيء!! وكالذي نادى به جان بول سارتر في وجوديته التي قال بأنها الفلسفة الوحيدة التي تحقق إنسانية الإنسان.

أين هي هذه المذاهب الثلاثة؟ لقد خرجت الشيوعية من التاريخ، وهزمت النازية، وذبحت الوجودية على يد مؤسسها نفسه..

اليوم يقع الفيلسوف الأمريكي فرنسيس فوكوياما في

الخطيئة نفسها، فيدعي نهاية للتاريخ يلقي فيها رحاله في ساحة الليبرالية الغربية متمثلة بأمريكا.. ثم ما يلبث هو نفسه، بعد أقل من عشر سنوات، أن يغيّر ويبدل في بعض قناعاته واستنتاجاته، لكي يؤكد لنا، كما تأكد لنا من مصائر المذاهب الثلاثة المشار إليها، أن الخبرة البشرية في الحقول الإنسانية خبرة نسبية ضعيفة متغيرة وعاجزة تمامًا عن اكتشاف المطلق وبلوغ الحقائق النهائية.

من أجل ذلك تنزلت الأديان.. من أجل أن تملأ هذه الفجوة في تاريخ المحاولات البشرية، وتضيء الصراط لكل الحيارى والضائعين، عبر منظومة من الحقائق الكلية والمطلقة، والتي لن يكون بمقدور الإنسان أن يحيط بها علمًا؛ لأنها من اختصاص اللَّه سبحانه وعلمه اللا محدود.

ومن أجل ذلك كان الإسلام، رغم مرور أربعة عشر قرنًا على نزوله، هو العقيدة الوحيدة القديرة على صياغة الحياة، أو إعادة صياغتها، بما يتوافق مع مطالب الإنسان والبشرية.

ومهما كرّت القرون، وتقلبت بالناس المذاهب والنظريات، فإن هذا الدين سيظل العقيدة الوحيدة الملائمة للإنسان والقادرة على خلاصه..

* * *
* *
*

الحصار

يعاني الإنسان المعاصر من « الحصار ».. الإنسان في العالم كله.. غربه وشرقه على السواء.. قد تختلف النسب بين بيئة وأخرى، وقد تتغاير أنماط الحصار هنا وهناك.. ولكن، وبشكل عام، يبدو أن المعاناة التي تتمخض عن الحصار الذي يأخذ برقاب الإنسان المعاصر، غدت أمرًا محتومًا في حضارة لم تعد تكترث بإنسانية الإنسان، أو تتعامل معه بصفته كائنًا فريدًا ذا مواصفات قل نظيرها بين الكائنات..

حصار التكاثر بالأشياء.. حصار الآلة.. حصار النظم الشمولية.. حصار المادية.. حصار الطواغيت والأرباب.. حصار الإغراء والتفكك والانحلال.. حصار التلوث البيئي بأصنافه كافة.. حصار القلق والاكتئاب..

وكل واحد من هذه الأنماط يعمل منشاره في الإنسان المعاصر فيسوقه إلى التعاسة والشقاء.. ويقوده إلى الدمار..

الأمراض النفسية ازدادت سعارًا.. وقاموسها أصبح ينوء بحالات متكاثرة سرطانيًّا.. والأوجاع الجسدية، الموقوتة والمزمنة، أصبحت هي القاعدة وغيرها الاستثناء.. وإلى عهد قريب كانت حالات ضغط الدم والحساسية والتهاب القولون وانسداد الشرايين وآلام المفاصل والانزلاق

الغضروفي وأوجاع القلب والرأس.. والجلطات والذبحات.. وغيرها، وغيرها، حالات محدودة لا تكاد تذكر.. والآن فإن معظم الناس في مشارق الأرض ومغاربها يعانون من واحد أو أكثر من هذه الأمراض..

لقد توفرت للإنسان المعاصر كل سبل التيسير المادي والخدمي، ولكنه ليس بسعيد، لأنه على المستوى النفسي.. في دائرة الروح.. يعاني من إهمال منقطع النظير.. حضارته المعاصرة تمنح جسده ما يريد، ولكنها لا تكاد تستجيب لمطامحه وأشواقه وخبراته النفسية والروحية.. إن الإنسان المعاصر يعاني من واحدة من أبشع حالات التضحّل والتفكيك في عمقه الإنساني.. ومن ثم فهو يتعرض بالضرورة للضياع فيما يذكرنا بالمقولة المعروفة: « ماذا لو ربح الإنسان العالم وخسر نفسه »؟

في كتاب أريك فروم (الإنسان بين الجوهر والمظهر) يطرح المؤلف هذا التساؤل الخطير: نتملّك أم نكون؟ وكأنه بذلك يختصر المعضلة بكلمات قلائل.. فالذي يحدث الآن على مستوى العالم أن الحضارة المعاصرة تفتح المجال للإنسان على مصراعيه لكي يتملك، لكنها تضيّق الخناق عليه، وتسدّ السبل أمامه إذا حاول « أن يكون »..

والدين هو صوت الخلاص، وسبيل التحرّر والفكاك

من كابوس الحصار.. الدين هو المنهج والصراط للتحقق بالسوية الإنسانية.. الدين هو وحده القادر على تعديل الوقفة الخاطئة والعودة بالمعادلة البشرية إلى وضعها الطبيعي: أن يصبح هدفنا أولًا هو أن نكون.. أما التملك فالمفروض أن يأتي تاليًا، خلافًا تمامًا لما يحدث الآن في الخبرة الحضارية المعاصرة.

هذا التكاثر المجنون بالأشياء.. هذا السعي المحموم للاقتناء.. هذا النزوع المادي والاندفاع باتجاه مطالب الجسد.. هذه الآلية الطاغية التي تخترق مفاصل الحياة وشرايينها، وتزداد سعارًا يومًا بعد يوم.. هذا التلوّث المخيف الذي يخترق معادلات الأرض، ويملأ سماءها بالدخان والسموم..

وبموازاة ذلك كله، يتعرض الإنسان لأبشع صيغ القسر والاستلاب من خلال النظم والطاغوتيات التي تتحكم برقابه، فما يزداد إلّا تعاسة وشقاءً.. ويومًا بعد يوم يفقد بعده الإنساني ويضيع..

الحصار يحيط بالإنسان من جهاته الأربع، ويمنعه من أن « يكون ».. ومن أجل ذلك يصير الدين ضرورة من الضرورات.. لأنه مركب الخلاص الوحيد إذا أريد للبشرية ألّا تتعرض للغرق.. وللإنسان أن يكون..

الكتاب.. وليست الجامعة أو التلفاز

كنت دائمًا أقول لطلبتي في الجامعات أن مائة سنة من الدراسة والتلقي في المدارس والمعاهد والجامعات.. ومعها مائة سنة أخرى من الجلوس أمام الشاشة التلفازية (الكمبيوتر والإنترنت والفضائيات.. إلخ) لن تخرج مثقفًا ولا باحثًا ولا مفكرًا ولا أديبًا ولا مبدعًا.. ولكنها ستخرج أجيالًا من (المتعلمين) الذين لا يملكون القدرة على الإضافة والإبداع والتأليف والتفكير المنتج والجاد.. وأن الذي يخرج أولئك المبدعين هو (الكتاب).. ما يسمى بالمطالعة الخارجية التي تنبني على التأسيسات الأولية للمدرسة والمعهد والجامعة، وهي مجرد تأسيسات أولية، وأشدّد على الكلمة، لن تؤتي ثمارها ما لم يضف الطالب إليها جهدًا ذاتيًّا موصولًا من خلال قراءاته النهمة للكتاب.

هذا هو المعهد، أو الجامعة، التي تخرج المفكرين والمبدعين والكتّاب، ولكن بالشروط التي يجب أن تتوفر في المطالعة الجادة، وهي أن تكون قراءة منتجة وليست استهلاكية.. قراءة تدرس وتحلّل وتنقد وتتقبل وترفض وتحاور، وتعود لقراءة الكتاب الواحد أكثر من مرة من أجل أن يقدم خزينًا ذهنيًّا للقارئ يعينه على بناء ذاته ولا يتعرض

للنسيان.. فإن قراءة كتاب واحد خمس مرات أفضل من قراءة خمسة كتب لمرة واحدة كما يقول العقاد - رحمه اللَّه -.

هذا إلى ضرورة أن تكون المطالعة متنوعة تمضي للتعامل مع أصناف المعرفة الإنسانية في حقولها كافة، وبقدر ما يطيقه القارئ الذي يتحتم عليه أن يبذل جهده العقلي في أقصى حالات احتماله - كما يقول الباحث الإنكليزي هـ. ج. ولز - وليس في حدوده الدنيا، كما يحدث بالنسبة لمعظم القرّاء.

إن التعامل الجاد مع الكتاب في سياق المطالعة الخارجية، يعين بالتأكيد على تنمية القدرات العقلية والإبداعية للقارئ، ويمنحه الرصيد الذهني الذي يأخذ بيده لبناء مستقبل علمي معرفي مترع بالوعد والعطاء والإبداع.

وبخلاف ذلك سنكون مقبلين على عصر الأمية والكسل العقلي، وغياب المؤلفين والكتاب والمبدعين الكبار.

إن المقرّر المنهجي المعتمد في المدارس والمعاهد والجامعات، ما لم تعنه المطالعة الخارجية، وتأخذ بيده، فإنه سيضيّق الخناق على النشاط العقلي، وسيحدّ من الفضاء العلمي والمعرفي للطالب، وسيخرج في نهاية الأمر ببغاوات لا تجيد سوى الاجترار والتقليد.

وما تقدمه الشاشة التلفازية لا يعدو أن يكون (سندويتشات) ثقافية عابرة لا تحفز العقل، ولا تعين على التكوين الثقافي المؤثر والفاعل والمنتج للمشاهدين، بل ربما على العكس.. إنها بتقديمها الوجبات الجاهزة التي لا تتطلب جهدًا عقليًّا، ستعين على المزيد من الكسل الذي ينذر بالويل.

المقرّر الجامعي.. نعم.. الشاشة التلفازية.. بكل تأكيد.. ولكن بشرط اعتبارهما مجرد حلقة أو خطوة أولية على الطريق الطويل.. ولا بدّ - إذن - من (الكتاب) إذا ما أريد اجتياز هذا الطريق الطويل.. وإلّا فإن أجيالنا القادمة ستظل تراوح عند بدايات الطريق.

وعلينا جميعًا أن نتداعى للدعوة إلى عودة تقاليد المطالعة الأصيلة في حياتنا الثقافية، تلك التي كانت أشبه بالتقليد اليومي للطلبة والشباب حتى ستينيات القرن الماضي، وربما سبعينياته، ثم ما لبث هذا التقليد «المنتج» أن انطفأ، واكتفت الأجيال التالية بما تقدمه المدرسة والجامعة والتلفاز.. إلّا من رحم ربك، وهو استثناء لا يقاس عليه.

* * *
* *
*

الخروج من المأزق

في النظم والمذاهب الشمولية الطاغية تمارس لعبة باسم الدفاع عن المبادئ التقدمية التي تخدم الإنسان، ويتحول المذهب أو النظام بمرور الوقت إلى أنياب حادة تمزق كل من يحاول أن يتصدى لرموزه، أو ينقد أخطاءه وممارساته.. ويضيع الإنسان!

وفي النظم الليبرالية يرفع شعار (الدفاع عن الإنسان)، أيًّا كان موقعه، وبمرور الوقت تنحسر منظومة القيم والمبادئ التي تحمي المجتمع.. فيضيع..

وتاريخ الغرب الحديث والمعاصر يقدم العديد من الحالات في الاتجاهين معًا، فيما ألحق بالإنسان والجماعات هناك جملة من المرارات والخسائر والانكسارات.. وكلنا يذكر ما فعلته الشيوعية والشوفينية والرأسمالية فيما لا يتسع المجال للوقوف عند تفاصيله، أو حتى الإشارة إلى بعض شواهده.

ترى.. هل هناك سبيل للخروج من هذا المأزق؟ لحلّ هذه المعادلة الصعبة؟ لحماية الإنسان والجماعة.. النظم والقيم على السواء؟

لقد جاءت الأديان لإعطاء الجواب.. وما لبثت المحاولة،

بعد صراع طويل، أن تجلّت بصيغتها المكتملة في الإسلام.. ولقد عكست مساحات واسعة من تاريخنا الإسلامي هذا التوازن المدهش الذي يعطي الفرصة للإنسان والجماعة معًا، ويمكن للنظم والقيم أن تشق طريقها، وتواصل وجودها وتناميها في قلب الحياة.

لقد التقى العدل بالحرية في صيغة وفاق لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلًا إلّا في القليل النادر.. وقاد الرسول ﷺ وصحابته وأجيال التابعين وتابعيهم بإحسان من بعدهما تلك التجربة المدهشة التي أتيح فيها للإنسان أن يمارس حريته، وأن يتحقق على شتى المستويات، في الوقت نفسه الذي وجدت فيه النظم والقيم والمبادئ فرصتها للفاعلية والتنامي بما أنها تعبير عن شريعة اللّٰه سبحانه.

وانطلاقًا من النصّ القرآني والسنة النبوية، وصولًا إلى شبكة المعطيات الفقهية الخصبة، يجد المرء الاهتمام ذاته بالقطبين معًا: الإنسان والجماعة. فلم يضيق الخناق على أحدهما لحساب الآخر، وإنما أعطى المجال لحركة الطرفين بما يؤول إلى تكوين الإنسان المسلم والجماعة المؤمنة.

والذي يتابع ظاهرة الاهتمام الكبير الذي يوليه الإسلام للجماعة، قد يقع في إسار استنتاج خاطئ يخيل إليه أن هذا الدين هو في أساسه مشروع لبناء الجماعة، ولكن وبمجرد

متابعة الجانب الآخر للصورة سيجد نفسه إزاء الاهتمام ذاته بالإنسان؛ حيث يبدو الإسلام كما لو كان دين التحقق الذاتي على مستوى الأفراد.

فهو إذن التوازن المقصود بين القطبين، حيث لا تصلح الحياة، وتتدفق معطياتها، وتتنامى، إلّا بإعطاء الفرص المفتوحة لتحقّق القطبين معًا.

إن الذي يقرأ كتاب الشاعر الفيلسوف المسلم (محمد إقبال): (تجديد الفكر الديني في الإسلام)، يجد نفسه إزاء شبكة من المعطيات التي تقود إلى التحقّق الذاتي للمسلم في أشد حالاته فاعلية وتألّقًا.. والذي يقرأ كتاب المفكر الفرنسي المسلم (رجاء غارودي): (وعود الإسلام)، يجد نفسه إزاء شبكة من المعطيات التي تقود إلى بناء الجماعة وفق مشروع للتصعيد والتسامي يثير الدهشة والإعجاب..

والإسلام هو في حقيقته هذا وذاك.. تحقّق الفرد والجماعة معًا.. فما قاله (غارودي) لا يتعارض أو يناقض ما سبق (لإقبال) أن عرضه في كتابه ذاك بل يكمله، بإدارته الكاميرا على الوجه الآخر للصورة. فالإسلام في تعاطيه مع الثنائيات هو دائمًا (هذا وذاك) وليس (إما هذا أو ذاك).

* * *

كتّابنا والهياكل المقدسة

كثيرون من علمائنا وأدبائنا وكتابنا وأساتذتنا الجامعيين مصابون بنوع من عقدة (أو مركب) النقص إزاء فلاسفة الغرب (وكبار!) مفكريه.. الأمر الذي يدفعهم إلى الإعجاب الذي يبلغ حدّ التقديس لكتاباتهم وفلسفاتهم.. يقفون عندها كما يقف العباد والمتنسكون في الهياكل، ينصتون بكل جوارحهم للتراتيل المقدسة، معتقدين حتى آخر خلية في عقولهم أن هؤلاء مخلوقون من طينة أخرى غير طينة البشر العاديين، وأن ما يقولونه ويكتبونه هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

إنها صنمية جديدة لا تقل هيمنة واستعبادًا للعقل البشري عن الصنميات العتيقة البائدة، بل إنها تفوقها في القدرة على الاستلاب.

ولا زلت أذكر عددًا من الأساتذة الجامعيين الذين حصلوا على شهاداتهم من لندن أو واشنطون أو باريس.. إلخ، وعادوا لكي يتسنموا مهامهم التدريسية، كيف أنهم كلما وردت على ألسنتهم أسماء من مثل ماركس وأنغلز وهيغل وسارتر.. إلى آخره.. وقفوا بخشوع وإجلال يصل حدّ التقديس، وكيف أنهم - بهذا - كانوا يستلبون - بدورهم -

عقول تلامذتهم، ويرغمونهم على دخول المعبد المقدس، والسجود للآلهة والأرباب، بينما كانوا عندما يرد على ألسنتهم اسم (محمد) ﷺ لا يكلفون أنفسهم عناء الصلاة عليه، وكأنه - وحاشاه - رجل اعتيادي من عامة الناس..

ولا زلت أذكر - كذلك - الزيارة التي قام بها لمصر، قبيل واقعة الخامس من حزيران (١٩٦٧م) الفيلسوف الوجودي الفرنسي (الكبير!) جان بول سارتر وكيف كلف بمرافقته والسهر على مطالبه أديب ومفكر مشهور هو (توفيق الحكيم) الذي لم يأل جهدًا في الطواف به على آثار مصر ومتاحفها ومواقعها المهمة، وفي تعريفه بأدباء مصر ومفكريها، وكيف شهدت الصحف المصرية ضجة كبيرة من التقييم والترحاب تليق بالضيف الكبير..

ثم لما رجع إلى فرنسا، ووقعت واقعة حزيران الأسود، بعد أيام قلائل، وانطلقت التظاهرات في باريس تؤيد إسرائيل وحقها في الوجود، وتدين البدو العرب الذين يسعون لاغتيال الدولة العبرية المتحضرة.. كان سارتر.. سارتر نفسه، يقود إحدى هذه التظاهرات!!

ليس هذا هو المهم.. إنما موقف العديد من المثقفين العرب الذين يبالغون في تقديس الرموز الغربية، ربما بسبب هوان أنفسهم عليهم..

وعلى أية حال فإن سارتر قبل أسبوعين من وفاته، أجرى لقاءً صحفيًّا مع عشيقته (سيمون دو بوفوار) اعترف فيه بخطأ رؤيته الفكرية الإلحادية للعالم والوجود، وأعلن تبرّؤه من إنجيل الوجودية المعروف باسم (الوجود والعدم)، وأقر بأنه لا ينكر وجود اللّه سبحانه..

وإنه - والحق يقال - موقف يحمد لسارتر؛ لأنه ينطوي على أخلاقية صادقة وجرأة قلّ نظيرها لدى الكتاب والفلاسفة والمفكرين العرب..

فماذا سيكون موقف (الأتباع) و (المعجبين) تلامذة المدرسة الوجودية في ديارنا العربية، بعد أن رأوا شيخهم الكبير يتخلى عن فلسفته؟ وهل سيتعلمون من هذه الواقعة فيكفون عن اللهاث وراء رموز الغرب، ويحتفظون باستقلاليتهم ورؤيتهم الموضوعية المتوازنة، وأصالتهم، ويثوبون إلى رشدهم؟

لا أعتقد ذلك.. فها هم (الحداثيون) العرب يركضون وراء التقليعات الحداثية الغربية التي تسقط إحداها الأخرى في مسلسل لا يكاد ينتهي: البنيوية، ما بعد البنيوية، السيميائية، التفكيكية.. إلخ، يأخذونها على عواهنها، ويدخلون هياكلها بإجلال وخشوع، كأنهم ينصتون إلى أصوات الآلهة المنبعثة في التراجيديات اليونانية.. ثم لا تكون الخاتمة سوى أن

الغربيين أنفسهم ينهالون عليها بفؤوسهم لكي يحلّوا محلها معبودًا جديدًا.

ولا يكاد يخفى على مطلع أن أحد كبار الرموز التي يقدسها الحداثيون، هو الأديب والفيلسوف الألماني (نيتشه) الذي يبنون الكثير من معمارهم على كفره وضلاله.. بل على جنونه الذي انتهى به إلى إحدى المصحّات..

ألا يتحتم أن نكون أكثر أصالة مع أنفسنا وعقيدتنا وفكرنا وتراثنا، لكي نكسب احترام الآخرين.. فالذي لا يحترم نفسه لا يحترمه الآخرون..

* * *
* *
*

نمطان من الناس

في حياتنا اليومية.. عبر شبكة علاقاتنا الاجتماعية.. في سعينا اليومي بين الدوائر والمؤسسات والأسواق.. نلتقي نمطين من الوجوه.. الفارق بينهما يمتد على مسافة (١٨٠) درجة.. فيما يذكرنا بالفارق بين الملائكة والشياطين..

وجوه تنضح بالشرّ والخبث والمكر والخداع والأنانية واللؤم والفسق والفجور.. تغطيها ظلمات يعلو بعضها بعضًا وتكاد تستعصي على الوصف.. ووجوه تنضح بالخير والبراءة والأثرة والعطاء والإيمان والاستقامة.. تغمرها الوضاءة والبشاشة والسكينة والرضا، وتفرش على قسماتها ملامح نورانية تستعصي على الوصف.

وجوه منغمسة بالرذيلة التي تنطوي على كل قيم الشرّ والضلال في هذا العالم، ووجوه متوضئة بالفضيلة التي تنطوي على كل قيم الخير والاستقامة في هذا العالم.

ومنذ البدء أرادها اللّه سبحانه هكذا.. أن يتجاور الخير والشرّ، والنور والظلمة، والهدى والضلال.. وأن يتعاقب الليل والنهار على كرّ العصور والأزمان..

منذ البدء أرادها اللّه سبحانه تغايرًا، وتنوعًا، وتدافعًا، واختلافًا:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، بل إن القرآن الكريم أشار لحكمة يريدها اللّه سبحانه إلى أنه: ﴿أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] .

وهكذا عجنت الحياة الدنيا بالاثنتين معًا، ونسجت خيوطها بالطول والعرض، وهي تنطوي على الاثنتين معًا.

وبذلك يتميز الخير من الشر، والذهب من التراب، والأصيل من الدخيل، والطيب من الخبيث، والمستقيم من الملتوي، والمؤمن من الفاجر.. إلى آخر الخط الطويل من هذا التضاد الذي يغطي الحياة الدنيا من أقصاها إلى أقصاها.

ومهمة المؤمن في هذا العالم أن يجابه الشر بكل صيغه وأنماطه، وأن يبذل جهده المكافح الموصول لمدّ مساحات الخير.. وسواء حصد نتاج كفاحه هذا في الدنيا أم في الآخرة.. فإن عليه ألّا يقف لكي يتساءل: لماذا تأخر الحصاد؟ المهم أن يبذل جهده ويمضي.. وسيكون قانون تراكم الجهد كفيلًا بتحقيق المطلوب، والمطلوب هو توسيع مساحة الخير وتضييق الخناق على الشرّ، من أجل ألا تنتشر في الدنيا وتستأثر بمقدراتها هذه البقع السرطانية.. هذا النمط الذي

تغمر وجهه الظلمات، والذي يصعب التعامل معه، والذي يجعل الحياة لا تستحق أن تعاش..

من منا لم يتعامل مع النمطين.. في السوق، في الشارع، في المؤسسة، في الدائرة، وفي كل مكان من أرض اللَّه الواسعة؟

من منا من لم يتعذب، ويتألم، ويكتوي بالنار، ويصاب بالهم والغم والاكتئاب، وتتعرقل مصالحه، ويُغش، ويُخدع، ويطفف معه الميزان، وهو يتعامل مع هذا النمط الرمادي أو الأسود من الناس؟ ومن منا من لم يشعر بالارتياح والسعادة، والتخفف والرضا والانسجام، وهو يتعامل مع النمط الوضيء المشع من الناس؟

من هنا تبدو قيمة هذا الدين باعتباره منهج عمل لتوسيع رقعة السعادة والفرح والتخفف والانسجام في حياة الناس.. منهج عمل لتسيير شؤونهم اليومية، ومطالبهم التي لا حصر لها بأكبر قدر من اليسر والرضا..

وتبدو قيمته - كذلك - باعتباره منهج عمل لملاحقة بؤر الضيق والتعاسة وتعذيب الناس، وعرقلة شؤونهم، وإلقاء حفنات من المرارة في حلوقهم.. ملاحقتها وتضييق الخناق عليها.

فالدين المعاملة، كما تحدث رسول اللَّه ﷺ، والمسلم

المسلم هو من وصفه بأنه سمح إذا باع، سمح إذا اشترى..
وكتاب اللَّه يجابه بأقصى درجات الويل والتنديد والثبور أولئك ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٢، ٣]، ويضعهم وجهًا لوجه أمام يوم الحساب العسير ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ٤ – ٦].

وهذا يكفي..

* * *
* *
*

الإنسان في قوته وضعفه

المنظور الإسلامي للإنسان يتميز بالواقعية.. إنه يتعامل معه في حالتي القوة والضعف.. ويؤكد وجود الحالتين معًا في الكينونة البشرية، فيدفع الأولى إلى المزيد من التألق، ويأخذ بيد الثانية صوب الصحة والعافية.

منذ لحظات الخلق الأولى أضيفت نفخة الروح العلوية إلى كتلة الطين السفلية فأصبح الإنسان مزيجًا من التوق والشد.. الصعود والهبوط.. التسامي والارتكاس.. اليقظة والغفلة.. والتحرّر والاعتقال.

منذ لحظات الخلق الأولى شُكل الإنسان في أحسن تقويم، وصدر الأمر للملائكة بالسجود له، تشريفًا وتكريمًا، وحمل في البر والبحر، ورزق من الطيبات، وفضل على كثير من الخلق تفضيلًا.. وكان ينطوي في الوقت نفسه على العجلة والضعف والاستعداد للخطيئة، والاستجابة لإغواء الشيطان.

منذ لحظات الخلق الأولى يُعلم آدم الأسماء كلها.. أي يعطى - بعبارة أخرى - مفاتيح المعرفة التي هي أساس الفعل الحضاري، وهو - مع ذلك - يحمل الاستعداد للقتل وسفك الدم، فيما توجست منه الملائكة خيفة.

والقرآن الكريم لا يبخل علينا بتسليط أضوائه الكاشفة

على خفايا الإنسان ومكوناته ومنازعه، وعناصر القوة والضعف فيه؛ لأنه يتابع - بواقعية - ملامح وبصمات هذا الكائن الفريد الذي هو من خلق اللَّه - سبحانه - الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

المذاهب الوضعية والأديان المحرفة تصعد بالإنسان إلى القمة أو تهوي به إلى الحضيض، وهي في كلتا الحالتين تمارس انحيازًا غير مبرّر لهذا الاتجاه أو ذاك، وتتجاوز الرؤية الوسطية والواقعية التي نلتقيها في كتاب اللَّه..

السوبرمان، والجنتلمان، والكائن الأعلى، والإنسان المحاط بالخطيئة، والإنسان حيوان اجتماعي، وغيرها من التقاليع التي ضلّت الطريق، وتعاملت مع هذا الكائن الفريد برؤية أحادية عاجزة عن الإحاطة بجوانب الكينونة البشرية كافة..

اليهودية ترفع شعبها فوق مستوى البشرية بادعاء مبدأ (شعب اللَّه المختار)، والمسيحية تطوق الإنسان بالخطيئة الأبدية التي لا يخلصه منها - حسب ادعائها - سوى صلب السيد المسيح عليه السلام.. دون أن يبذل الإنسان من جهته أي جهد للخلاص.. والمذاهب الوضعية تؤله الإنسان حينًا، وتسحقه حينًا آخر.. تغيّبه في الجماعة حينًا، وتمكنه من رقابها حينًا آخر..

ومنذ اللحظات الأولى أعلن الإسلام في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ما ينطوي عليه الإنسان من قدرة على التسامي والصعود، ومن انقياد للإغواء والشهوات، وقال رسول اللَّه ﷺ: « **كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون** » [أخرجه ابن ماجه والترمذي]، وأعلن القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا عن أن الإنسان هو أسير الآثام واللمم والأخطاء.. وأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن يقدر على تجاوز الشدّ والتهيّؤ للصعود..

إن الإسلام - بإيجاز شديد - دعوة للتغلب على العوائق، وبذل الجهد لمجابهة عوامل الشد.. مع الاعتراف بثقلها..

والإنسان في المنظور الإسلامي مشروع مفتوح للتحقق الذاتي عبر رحلة العمر المتطاولة، والدائبة، والطموحة ما بين محطات الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان.. تلك المحطة القمة التي يملك فيها الإنسان مطلق إرادته في السيطرة على نوازعه وصياغة مصيره.. تمامًا كما يريد اللَّه ورسوله أن يكون..

* * *
* *
*

الحياة.. والتعاليم

في رواية (سدهارتا) للروائي الألماني المعروف (هيرمان هيسه) إيغال في الخبرات الدينية والروحية في الساحة الهندية، ووقفة طويلة عند البوذية.. ونلتقي بطل الرواية وهو ينتقد ذلك الانفصال المحزن بين التعاليم وبين التجربة الحية.. التجربة المعيشة في واقع السلوك اليومي دقيقة بدقيقة، ولحظة بلحظة. وهو من أجل ذلك ينهي انتماءه للبوذية باعتبارها سبيلًا للخلاص، ويتحول للبحث عن خبرة روحية أكثر إقناعًا.. خبرة تتناغم فيها التعاليم مع التجربة.. مع الحياة..

ونتذكر كيف أنه في الإسلام استطاع رسول اللّه ﷺ وصحابته الكرام - رضي اللّه عنهم - التحقق بأقصى درجات الوفاق بين التعليم والتجربة.. بين الذات والسلوك.. بين إعادة صياغة الحياة بالحياة وبين صياغتها بالتعاليم، إنها أعلى صيغ الحكمة على الإطلاق: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

حتى أسلوب تنزّل القرآن الكريم سورًا ومقاطع وآيات، على فترات ومراحل، كان أحد أغراضه الأساسية، هو أن يتشرب المسلمون التعاليم القرآنية يومًا بيوم ودقيقة

بدقيقة.. أن توغل في مكوناتهم الذاتية، وأن تصبح جزءًا من سلوكهم، وأن تتعاشق مع الحياة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهذه القراءة ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ هي التي جعلت كل واحد منهم في نهاية الأمر « قرآنًا يمشي على الأرض ».

ليس ثمة ازدواجية على الإطلاق بين التعليم والتجربة.. بل إن ممارسة كهذه كان أصحابها يدانون، بل قد تصل بهم في أقصى درجات حدتها إلى (النفاق)!

ونحن نقرأ - على سبيل المثال - ومن بين حشود من الآيات، هذا الوعيد القرآني لأولئك الذين انفصلت عندهم التجربة عن التعاليم، واكتفوا بالأخيرة، دون أن يبذلوا أي جهد لتحويلها إلى ممارسة.. إلى سلوك مشهود: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾.. وهل ثمة أكثر تنديدًا ووعيدًا من المقت الكبير الذي يحيق بهؤلاء؟! ونحن نتابع - على سبيل المثال كذلك - ومن بين حشود من الأحاديث النبوية هذا التحذير: « **من لم تنهه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعدًا** » [رواه الطبراني].

إنها الدعوة الملحة - إذن - للتحقق بالوفاق المرتجى بين القطبين : التعليم والتجربة، وبدون ذلك لن يكون المسلم مسلمًا بحق، وبأي معيار من المعايير.

هذا الوفاق الذي لا يتحقق عرضًا، ودونما بذل جهد حقيقي.. أبدًا.. إنما هو ثمرة كفاح موصول مع (الأنا) ومع (الخارج).. كفاح ذو اتجاهين أحدهما عمقي يوغل في الداخل لملاحقة كل قوى الشد، وعناصر الانفصال في الذات الإنسانية، والآخر يمضي إلى الخارج لتذليل العوائق والصعاب، ومجابهة الضغوط والتحديات، وتعبيد الطريق للخبرة الإسلامية كي تصبح أمرًا واقعًا وسلوكًا منظورًا.

ولشدة ما تنطوي عليه المحاولة من معاناة باهظة سماها الرسول ﷺ: (الجهاد الأكبر)، ودعا أتباعه إلى تمحيض أنفسهم لمطالبه وضروراته، بل إنه وضع لهم سُلّمًا ترتقي درجاته صوب القمة، ويجتاز قطاره محطات الإسلام، والإيمان والتقوى والإحسان.. ها هنا حيث يكون التطابق الباهر والكامل بين التجربة والتعاليم، وحيث يقف المسلم قبالة الحضور الإلهي، متجردًا للحق في أقصى درجات عطائه وتألقه، معتقدًا أن اللَّه سبحانه يراه في كل خلجاته وسكناته، فيسعى لأن يمتثل لأمره سبحانه..

ها هنا - فعلًا - تتحول كلمات اللَّه إلى سلوك منظور..

إلى خبرة حيّة معيشة، تخترق العظم واللحم والأعصاب، وتتمركز في العقل والروح.. ها هنا - فعلًا - يصير المسلم « قرآنًا يمشي على الأرض ».

ويطل الإنسان من هذه القمة السامقة إلى كل المذاهب والأديان الأخرى فيرى الفارق كبيرًا كبيرًا بين دين يعيشه الإنسان من الداخل، ومذاهب وأديان تنفصل فيها الحياة عن التعاليم.

* * *
* *
*

الدكتاتور

يمكن أن تكون الدكتاتورية نوعًا من إفناء أو امتصاص (الآخر) حيث تتضخم على حسابها كينونة الطاغية..

حالة سرقة وقهر وابتزاز يمارسها الدكتاتور الذي يقف وحيدًا في مواجهة شعب بكامله.. حالة من عدم التوازن.. حيث يميل الميزان بشكل غير مبرّر على الإطلاق لتأكيد شخصانية الطاغية ورغباته ونزواته ونزوعه الذاتي على حساب الجماعات المقهورة، والمستلبة، والمستعبدة، وإقصائها عن مطامحها ورغباتها ومنازعها.. وتوقها للتحقق.. بل عزلها عنها تمامًا..

شهوات الطاغوت لا تقف عند حد، إنها تمارس نوعًا من التضخم السرطاني الذي تصعب السيطرة عليه حتى من قبل أقرب المقربين إلى الطاغية، بل وحتى من الطاغية نفسه.. وبمرور الوقت تجد الشعوب والجماعات المقهورة نفسها إزاء الظاهرة (الفرانكشتاينية) حيث تنهار الحواجز ويفلت الزمام.. ويصبح فرانكشتاين ذلك العملاق الذي تصعب السيطرة على تصرفاته، والذي يتهدد الجميع ويرهبه الجميع.. رغم أن تضخمه في الأساس يعكس حالة مرضية مترعة بالالتواء والشذوذ.

والدكتاتورية بهذا الميل الجنوني باتجاه تضخم الذات وتقديسها، تشكل - بمرور الوقت - جملة من الطقوس التي يتعبد بها الأتباع الدكتاتور أو يساقون إليها، وبمرور الوقت أيضًا تصبح جزءًا أساسيًّا من سلوكهم.. من مفرداتهم المعيشية، وقد ينسون أنها فرضت عليهم، فتتملكهم القناعة الآسرة بأن الصنم هو المعبود، وألّا خضوع إلا له، ولا صلاة إلّا لأجله..

نوع من المسخ الآلي يسلط على إنسانية الإنسان، فينتزع منه خصائصه الذاتية، ويجرد من حيثيته، ويفقده شخصانيته، ويحوله إلى رقم من الأرقام أو ترس في عجلة تدور مسبّحة بحمد الطاغوت..

إنها واحدة من أبشع صيغ الاستلاب في تاريخ البشرية، وقد التقى بها الكثير من القراء في روايتي الأديب الإنكليزي جورج أرويل: (مزرعة الحيوان) و (١٩٨٤) ورواية الأديب الكولومبي ستورياس (السيد الرئيس)، ورواية الأديب الروماني كونستانتان جيوروجيو (الساعة الخامسة والعشرون)، ورواية الأديب الروسي بوريس باسترناك (دكتور زيفاغو) وغيرها كثير..

يفرّغ دماغ الإنسان، وتخلّى روحه، وتنزع بصماته، لكي يستوي مع الآخرين الذين مُلئت عقولهم، وأشبعت

أرواحهم، بمنظومة من الكليشيهات الجاهزة والممارسات القسرية التي تظل تكرر نفسها حتى تصبح عادة طقوسية لا ينال الإنسان الثواب وينجو من العقاب إلّا بممارستها والامتثال لمطالبها. إنه - باختصار شديد - الانفصال التام والمحزن بين الإنسان وبين شخصانيته.

تنفيذ غير مباشر لحكم الإعدام بالإنسان..

من أجل ذلك يصبح الدين، والإسلام بوجه الخصوص، ضرورة من الضرورات الإنسانية، إذا أريد للإنسان أن يحتفظ بخصائصه.

إنه في أساسه عقيدة تحرير الإنسان من كل أنماط القسر والاستلاب، والصنمية والطاغوتية والدكتاتورية والاستبداد.. تحريره حتى أعمق نقطة في كينونته.

إن شعار (**لا إله إلا اللّه**) هو في جوهره العميق انقلاب على هذا كله، وحمايةٌ للإنسان من كل الأنماط والممارسات التي تسعى إلى اغتيال إنسانيته.

أفلا يتحتم على البشرية أن تتشبث به من أجل ألّا يفترسها الكهنة والطواغيت؟

* * *
* *
*

وجهًا لوجه أمام الحضور الإلهي المدهش

في كتاب (الإعجاز الإلهي) للدكتور نبيل شفيق النشواتي، نقرأ للعالم، المستشار الهندسي الدكتور (كلوم كاثارامي) الذي صمّم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانغلي فيلد بأمريكا:« كان من أسباب إيماني باللّه ما قمت به من أعمال هندسية. فبعد أن اشتغلت سنين طويلة في تصميم أجهزة إلكترونية وكمبيوترات، صرت أقدّر كل تصميم وكل إبداع أشاهده، ثم خلصت إلى نتيجة مفادها أنه مما لا يتفق مع العقل ومع المنطق أن يوجد التصميم البديع المذهل للعالم من حولنا، والذي يتألف من أعداد هائلة من التصميمات المعقدة الفذة، من غير إبداع إلهي عظيم لا نهاية لحكمته وعلمه ».

تلك هي المحصلة النهائية المحتومة لكل من يتعامل (بعقلانية) مع الظواهر والأشياء.. وبالتجرّد الذي يقود إلى الحق.

و (كاثارامي) ليس أول ولا آخر عالم تقوده الحقائق العلمية إلى الإيمان باللّه.. فهنالك قبله، وسيجيء بعده بكل تأكيد، خط طويل من العلماء، وجدوا وسيجدون أنفسهم وجهًا لوجه أمام الحضور الإلهي المؤكد في بنية الكون

والعالم والحياة.. إزاء إبداعية اللَّه سبحانه في الوجود.. قبالة القدرة المطلقة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، والتي إذا أرادت شيئًا فإنما تقول له: كن فيكون.

في كتاب (اللَّه يتجلى في عصر العلم) وحده، والذي حرره الباحث الأمريكي (مونسما) شهادات لبضعة وثلاثين عالمًا يصلون إلى النتيجة نفسها: أن هذا الكون بتوافقاته المدهشة، والتي ينبني بعضها على بعض، والتي تتحرك لتحقيق غاية محدّدة، لا يمكن إلا أن يجيء تمخضًا عن إرادة إلهية فوقية تخلق وتحكم وتسيّر وتضبط، وتقود الظواهر والموجودات صوب أهداف وغايات مرسومة سلفًا في علم اللَّه.

وبدون التسليم بهذه الحقيقة التي يؤكدها واقع الحال صباح مساء، فلن يكون بمقدور ألف فلسفة مضللة، أو تحليل ساذج، أن يفسر ظاهرة التوافق الكوني وغائيته، أو يقع على سرّه العميق..

ومن بين تلك الفلسفات المضللة والساذجة: المادية الديالكتيكية التي قال بها (ماركس) و (أنغلز)، وتبنتها الشيوعية، وقامت عليها امبراطورية الاتحاد السوفياتي (المنحلّ)، والتي تقول بالتخلّق الذاتي للكون والوجود والحياة والذي تتحول فيه الكميات إلى نوعيات فتتطور من حال إلى حال، دون أن تكون هناك من وراء الخلق

والتطور أية إرادة فوقية، أو غاية مرسومة سلفًا.

وهذه النظرية الساذجة وغيرها من النظريات التي أطلق عليها (سوليفان) في كتابه المعروف: (حدود العلم) « نظريات السخف الطائش »، تذكّر بتحليل بديع للكاتب الإنكليزي (ألكساندر غراي) يسخر فيه هو الآخر من المادية الديالكتيكية التي كان من المحتوم تهافتها وسقوطها؛ لأنها لا تقوم على أي قدر من العقلانية والمنطق.

يقول (غراي): لو جئنا بجذع شجرة وطرحناه في الغابة بانتظار أن يتحول ذاتيًّا وبمرور الزمن إلى منضدة صالحة للكتابة، ذات قوائم ومجرات وسطح أملس ولون بديع، فإننا سننتظر آلاف السنين وملايينها دون أن تحدث المعجزة الخرقاء..

هذا بالنسبة لجزئية صغيرة تافهة، فكيف الحال بالنسبة لبناء الكون المحكم، والتوافقات المدهشة للسماء القريبة والكرة الأرضية، وسرّ الحياة وديمومتها؟

إن رجلًا من مثل (كاثارامي) الذي صمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية.. خبر بنفسه كيف أن جهازًا كهذا ينطوي على مئات الموافقات وألوفها، لا يمكن بأية نسبة على الإطلاق أن يكوّن نفسه بنفسه وفق المواصفات المطلوبة، وأنه لا بدّ من دخول

العقل والإرادة البشرية، فضلًا عن القصدية المسبقة لتحقيق المطلوب.. وإلا فهو الجنون بعينه..

ولا يمكن لمن يملك ذرة من عقل أن يسلّم برأي المجانين والبلهاء في تفسير خلق الكون والعالم والحياة وصيرورتها المعجزة..

وبالتالي: يصبح الفارق بين المسلّمين بالوجود الإلهي وبين القائلين بالصدفة، أو بالفعل الذاتي لما يسمونه (الطبيعة) هو الفارق بين الأذكياء والأغبياء.. أو بين العقلاء والمجانين!

* * *
* *
*

من هو الرجعي؟ ومن هو التقدمي؟

تقسيمات تقوم على الظن والتحيّز والهوى، اعتمدت بشكل اعتباطي عبر القرن الماضي، ولا تزال، وأصبحت (النوتة) السائدة في أوركسترا الصراع الحزبي والمذهبي، وفي سوح الأفكار والفلسفات والسياسات، فيما يذكرنا بلعبة اليمين واليسار، حذوك النعل بالنعل.

ومن عجب أن الظاهرة لم تقف عند حدود الصراعات السياسية والحزبية بين الناس العاديين، وإنما اعتمدت حتى من قبل بعض الفلاسفة والمفكرين.. الجميع مارسوا اللعبة بالحرارة نفسها، ولشدة تكرارها والتأكيد عليها أصبحت بالنسبة لهم أشبه بالعقيدة التي تنطوي على قدر كبير من القدسية.

وعلى سبيل المثال، كان الفيلسوف الألماني (هيغل) يرى في (مثاليته) التي تقوم على جدل الأفكار واصطراع النقائض في ميدان العقل، بإرادة فوقية مما أسماه العقل الكلّي الذي يتجلى في هذا البطل أو ذاك، وعبر هذا العرق الممتاز أو ذاك.. كان يرى العرق الألماني، بما ينطوي عليه من تفوّق وروح عسكرية هو العرق الذي يمثل أكثر الحالات التاريخية تقدمًا؛ لأنه التعبير الكامل عن إرادة العقل الكلي وتجلّيه في العالم.

وبغض النظر عن أن هذه الرؤية قادت ألمانيا وأوروبا، والعالم معها، إلى سلسلة من الحروب والويلات وحمامات الدم، فيما بلغ أقصى درجات حدّته في الحرب العالمية الثانية التي أشعلها الرايخ الألماني الثالث، والتي وجدت تبريرها الفلسفي في معطيات (هيغل)، بغض النظر عن هذا، فإن الذي حدث أن ألمانيا سحقت، وأن ذلك قادها إلى أن تتنكر لفلسفة (هيغل)، وتنقلب عليها، وتعتبرها أمرًا رجعيًا أصبح في ذمة التاريخ!

أما (ماركس) و (أنغلز) فكانت دعاواهما تقوم على أن الماديتين الديالكتيكية والتاريخية اللتين قالا بهما في تفسيرهما للكون والعالم والحركة التاريخية، تمثلان أقصى الحالات تقدمية، وأطلقا على الاشتراكية المتمخضة عنها اسم (الاشتراكية العلمية) أي تلك التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأصبح الإنسان الشيوعي هو الإنسان التقدمي الوحيد في هذا العالم، وأن الآخرين جميعًا اختاروا برفضهم الماركسية، أن يضعوا أنفسهم في خانة الرجعية.

وبمرور الوقت أخذ يتبين كم أن الماركسية كانت فكرًا رجعيًا بمعنى الكلمة؛ لأنها ربطت وجودها واستنتاجاتها بمعطيات القرن التاسع عشر، فلما مضى هذا القرن، وشهد

القرن الذي يليه متغيرات خطيرة وشاملة لم تخطر على بال (ماركس) و (أنغلز)، لم يعد الفكر الماركسي يستوعب هذه المتغيرات، لأنه فكر رجعي يرتبط بعصر مضى.. ثم ما لبثت حركة التاريخ التقدمية أن أطاحت بالماركسية وباشتراكيتها العلمية، وبالدولة السوفياتية التي قامت عليها.

ترى كم من المذاهب والفلسفات الوضعية ادعى أصحابها أنهم هم التقدميون واتهموا خصومهم بالرجعية، دون أن يفكروا لحظة بأنه ما من معطًى بشريٍّ بمقدوره استشراف المطلق، ووضع نفسه وأتباعه بالتالي على نقطة البداية الصحيحة، والانطلاق - وفق رؤية تقدمية - إلى الأمام!

والحق أن التقدمي الوحيد في هذا العالم هو المسلم؛ لأنه يستمد معاييره المطلقة من اللّٰه سبحانه الذي أحاط بكل شيء علمًا، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي هو أدرى بما خلق ومن خلق.. سبحانه وتعالى..

المسلم هو التقدمي الوحيد بانتمائه إلى عقيدة شاملة تتجاوز التحيّز والظن والهوى، وتعلو على المصالح والرؤى المحدودة والنسبيات.. وتضعُ المسلم في حالة وفاق مع سنن العالم ونواميس الكون، فيما يزيد من قدراته

على الحركة والتقدم والعطاء والإنجاز.

المسلم، باستخلافه على العالم الذي سخر له ابتداء لأداء مهمته العمرانية، يجد نفسه بالضرورة في حالة (تقدمية) تسعى إلى إعادة بناء العالم وإعماره وترقيته من أجل أن يكون البيئة الصالحة لعبادة اللّه سبحانه، بالمفهوم الحضاري للكلمة.. وهي حالة مطلقة لا ترتبط بعرق ما، أو يأسرها زمن أو مكان، كما حدث في الفلسفتين المثالية والماركسية اللتين آل بهما الأمر إلى أن (يرجعا) إلى الوراء بعد سقوط كل دعاواهما التقدمية!

* * *
* *
*

الأبيض والأسود في تاريخ الأمم

ما من أمة في الأرض إلا وتاريخها ينطوي على الأبيض والرمادي والأسود، لا يشذ عن هذا أحد.. فالإنسان هو الإنسان في كل زمن ومكان، وهو مفطور على الخير والشرّ معًا.

ومنذ لحظات الخلق الأولى قال الملائكة لرب العزة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾؟ وكان رده عليهم: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

فهو جل في علاه يريد حياة حركية غير ساكنة، تتمخض باستمرار، ويلتقي في ساحاتها الحق والباطل، والخير والشرّ، ويكون الصراع الذي يتميز من خلاله الأصيل من الدخيل، والذهب من التراب.

إن مغزى القيم الخلقية يرتكز في أساسه على هذا.. على قدرة الإنسان على مجابهة قوى الشرّ والضلال، ومدّ مساحات الخير والهدى. وكلما ازداد حجم هذه المساحات وضيّق الخناق على بؤر الشرّ والضلال، مضت الجماعات البشرية إلى الأمام، وقدرت على تنفيذ المهمة التي عهد بها إليها، والأمانة التي حملتها، وكانت صادقة مع نفسها، ومع منطق الحركة التاريخية.

ما من أمة في الأرض إلّا وتاريخها ينطوي بالضرورة على الأبيض والرمادي والأسود.. والمهم هو كم هي مساحة الأبيض في تجارب كل أمة؟ وما مدى قدرته على الاستمرار؟ وما مقدار فاعليته في صيرورة الحركة التاريخية؟

تاريخنا الإسلامي - على ما فيه من سوء - من مساحات سوداء وأخرى رمادية - وبخاصة في حلقته السياسية - فإنه في الحلقات العقدية والدعوية والحضارية يشع ألقًا وبياضًا، ويؤكد قدرة هذا الدين على التماس مع الواقع وإعادة صياغته من جديد. كما أنه - في الوقت نفسه - يعد بتقديم الخلاص للبشرية التي تفرّقت بها السبل، وسدّت أمامها المنافذ والطرق.. وهي عبر اللحظات الراهنة تعاني من ألف مأزق ومأزق، ولن يكون خلاصها - كما يؤكد الغربيون أنفسهم قبل المسلمين - إلّا بهذا الدين وبمشروعه الحضاري الذي ينطوي على كل قيم ودوافع التقدم المادي، ولكنه يمنحه عمقًا روحيًّا يجعل من الحياة الدنيا حياة تستحق أن تعاش.

المعطيات كثيرة، وهي تتدفق كالسيل لمن يعرف كيف يقرأ صفحات التاريخ الإسلامي.. هنالك حرية الاعتقاد وإنسانية التعامل مع الآخر.. وهناك احترام الإنسان من حيث هو إنسان.. وهناك أخلاقية التعامل الحضاري وتقديم الثمار اليانعة لكل من يريد.. هناك - أيضًا - سلوكية القوة

المنضبطة بالحكمة، ومنعها من أن تنفلت من عقالها وتضرب بوحشية وقسوة على غير هدى.

لقد تعاملنا طويلًا مع (الغربي) وخبرناه جيدًا.. إنه يصادر معتقداتنا ويعلن الحرب عليها.. وهو لا يكن أي قدر من الاحترام للإنسان خارج الدائرة الغربية من حيث هو إنسان.. وهو يمارس أبشع صيغ الأنانية في تعامله مع الكشف العلمي وبخاصة في مجال القوة.. وها هنا بالذات فإنه لا يتورع عن استخدام أقصى درجات البطش لسحق خصومه، بعيدًا عن منظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية.

ثم إن تاريخ الشعوب والأمم الإسلامية هو أقل التواريخ البشرية سوءًا اجتماعيًّا على مستوى الجريمة المنظمة، والإباحية، والشذوذ الجنسي، ودمار الأسر، والإدمان على المخدرات والمغيبات، والانتحار، والتفرقة العنصرية، وابتزاز الفقراء والمستضعفين.

الأبيض والأسود هما قدر التاريخ البشري.. والعبرة في قدرة الأمم والجماعات على توسيع دائرة الأبيض وتضييق الخناق على الرمادي والأسود..

* * *
* *
*

ولهذا كان لا بدّ من يوم الحساب!

في ختام تمثيلية (الطبيب والسيدة) التي عرضها التلفزيون في سبعينيات القرن الماضي، يقف الطبيب (توفيق الدقن) الذي كان يتابع حالة نفسية مستعصية لإحدى مريضاته.. ويقول: (اللَّه.. إدّ إيه الدنيا دي فيها ظلم.. إدّ إيه فيها خوف.. إدّ إيه فيها ألم..)..

وسأقف لحظات عند الجملة الأولى: الظلم الذي يسري كالورم الخبيث في جسد الحياة وشرايينها، والذي يتكاثر ويتوالد تلقائيًّا كالكائنات ذات الخلية الواحدة..

الظلم يغمر الكرة الأرضية، ويغطي السهل والجبل.. ظلم القوي للضعيف.. والدول القوية للدول الضعيفة.. والطواغيت للشعوب.. وأصحاب المال والسلطان للفقراء والمستضعفين.. بل - أحيانًا - الأخ لإخوته، والأبناء للآباء..

وبغض النظر عن دوافع الظلم وحجمه، فإنه في المنظور الديني والأخلاقي والإنساني غير مبرّر على الإطلاق.. إنه ممارسة لا دينية ولا أخلاقية ولا إنسانية بكل المعايير.

وجوهر المأساة البشرية يكمن في أن الظالم - أيًّا كان - قد يفلت من القصاص.. وأن المظلوم - أيًّا كان - قد لا يسترد حقه أو شيئًا من حقه..

يموت الظالم وهو قرير العين لم ينله ما يستحقه من عقاب.. ويظل المظلوم يجتر الحقد والحسرات والرغبة في الردّ، ويموت حسيرًا كليلًا دون أن ينال مبتغاه..

ما هكذا أراد اللَّه سبحانه للدنيا أن تكون.. ولكنه اختيار الإنسان.. ورغم أن الأديان كافحت على مدار الزمن لإعادة الأمور إلى نصابها، ونجحت في مساحات من الأرض.. إلّا أن المساحات الأوسع ظلت تعاني من الوجع الآدمي الذي يفترس الإنسان: الظلم..

فماذا لو تصوّرنا - مجرد تصوّر - أنه ليس ثمة بعث بعد الموت.. وأنه لا آخرة ولا حساب؟

ماذا لو تصوّرنا الظلمة والطواغيت والمجرمين يفلتون من العقاب إلى الأبد، ولا يقدر المظلومون والمستضعفون على استرداد حقهم المهدور؟

إنها حالة أشبه الكابوس الذي لا يرحم، والذي يطبق على خناق الإنسان فلا يستطيع منه فكاكًا..

ليس هذا فحسب، بل إن حالة عبثية كهذه لا تؤول إلى نهاياتها المحسوبة والمقدرة، ستزيد الظالمين ظلمًا وطغيانًا، وستزيد المظلومين والمستضعفين مسكنة وقهرًا واستعبادًا..

فمن أجل إحقاق الحق.. من أجل إقامة الميزان بالقسط..

من أجل ردّ الدين إلى أصحابه.. من أجل إنزال العقاب العادل بالظالم الذي لم يمسّه أذى في حياته الدنيا.. من أجل إنصاف المظلومين وإطفاء النار التي تشتعل في أعماقهم.. من أجل هذا كله - وغيره من الأسباب - كان لا بدّ من يوم الحساب..

هنالك حيث ترد الحقوق المهضومة إلى أصحابها، ويقتص من الظلمة والطواغيت.. وتدس أنوفهم في نار جهنم ورمادها..

وهنالك يتنفس المظلومون الصعداء، ويعرفون حق اليقين أنهم بيوم الحساب هذا، وبرحمة اللّه سبحانه وعدله المطلق.. إزاء معادلة مقدرة ومحسوبة، وأن الحياة الدنيا فرصة للابتلاء والكفاح من أجل العدل والحق، وليست مزرعة يصول فيها الظلمة والطواغيت.. ويجولون!

جلّت حكمتك، وتباركت قدرتك يا اللّه..

* * *
* *
*

لعبة الفلسفة!

لعبة مكرورة مارسها العديد من الفلاسفة واللاهوتيين وأرباب الفكر الوضعي، من أجل منح مذاهبهم وفلسفاتهم قيمة أكبر من قيمتها الحقيقية، والتغطية على ما تنطوي عليه من ثغرات وتناقضات.

إن جوهر الأفكار التي انطوت عليها تلك المذاهب والفلسفات لم تكن - في معظمها - بذات غناء.. لم تكن بحجم مطالب الإنسان، أو حجم التحديات التي تجابه العقل البشري.. ليست بحجم المعضلات الكبرى، ولا بحجم البعد الكوني للوجود البشري، ولا بحجم المصير الذي يتطلع إليه الإنسان.

لكن هذا العجز والقصور كله يغطى بلعبة كلمات متقاطعة اسمها الفلسفة!

بعضهم يعرف مسبقًا أنه يمارس خداعًا وتضليلًا لجماهير الناس فيلجأ إلى لعبة الألغاز تلك لتمرير لعبته..

بعضهم الآخر قد يكون جادًّا يستهدف إعطاء الأفكار قيمة أكبر من قيمتها الحقيقية، فيضع القارئ في متاهة الدروب التي لا تكاد تصل به إلى شيء..

وهم في كل الأحوال يندفعون وراء نوع غير مكشوف

من النرسيسية.. من عبادة (الأنا) ومحاولة تعبيد الآخرين لمذاهبهم وفلسفاتهم..

إلّا أن اللعبة ما تلبث أن تنكشف وينفضّ الأتباع، وتصبح الفلسفة أو المذهب خبرًا من الأخبار.. أو إنجازًا متحفيًّا.. أو فرصة لدراسة الدارسين وبحث الباحثين.

من أجل ذلك لم يقدّر لأية فلسفة الدوام والاستمرار والقدرة على مجابهة تحديات الزمن.. كلها ذهبت أدراج الرياح. وجاء غيرها وذهب هو الآخر أدراج الرياح.. وستجيء فلسفات أخرى لكي ما تلبث أن تذهب أدراج الرياح و ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣]

أين هي فلسفات أرسطو وسقراط وأفلاطون؟ أين هي لاهوتيات أوغسطين وأفلوطين وتوماس الإكويني؟ بل أين هي المذاهب والفلسفات الأقرب عهدًا: الوجودية والماركسية ؟ ثم ها هي موجات الفلسفات الحداثية يضرب بعضها بعضًا، ويخرج بعضها البعض الآخر من الساحة: البنيوية، السيميائية.. التفكيكية.. ما بعد التفكيكية.. إلى آخره..

وقد لا نعجب إذا رأينا أن نقطة الارتكاز في عبث

التفكيكية، وطقوسها، وألغازها، وكلماتها المتقاطعة، ونزوعها الهدميّ المدمر.. فلسفة رجل انتهى به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية: فـردريـك نيتشـه، الفيـلسوف الألماني المعروف!!

على خلاف هذا كله نجد أن دينًا كالإسلام، يقدم أفكاره الكبرى الموازية لمطالب الإنسان، وهمومه، وأهدافه، وسعيه للتوحد مع المصير.. ويجيب على كل الأسئلة التي تؤرق العقل البشري بأوضح الأساليب وأكثرها تكشفًا وبيانًا..

إنه - إذا جاز التعبير - أسلوب الواثق الذي يتقدم إلى الإنسان بشبكة من المعطيات والتصوّرات الغنية الخصبة التي هي، لغناها وخصبها، ليست بحاجة أبدًا إلى غطاء فلسفي.. إلى نوع من الألغاز والتعتيم الذي يختبئ وراءه الزيف والتضحّل والخواء، رغم إيهامه بأنه يقدم شيئًا كبيرًا..

تاريخ الفكر البشري على امتداده، انطوى على السياقين معًا، لكن أولهما ما لبث أن آل به الأمر إلى الإخفاق، ومعه لعبة الفلسفة التي طالما تفنّن في عرضها بألف صيغة وصيغة.

والذي بقي وسيبقى هو التصوّر الأكثر انسجامًا مع

الإنسان: كلمات اللَّه الواضحة.. البيّنة.. التي ترفض الاختباء (وحاشاها) وراء حيل الفلسفة وألاعيبها، وتعرض نفسها متجردة من أي غطاء.. منادية الآخرين، مقنعة إياهم بقوة ما تنطوي عليه من معطيات، وليس بأية وسيلة مضافة!!

* * *
* *
*

المفارقة الكبرى

الدين الإسلامي، من بين سائر المذاهب والأديان، يعترف بحقوق الآخر مهما كان لونه وطبقته وعرقه وانتماؤه وعقيدته.. ويحميه ويفتح أمامه الفرص..

الدين الإسلامي، من بين سائر المذاهب والأديان، يعترف بكل الأديان والنبوات السابقة ويعتبرها حلقات في سلسلة واحدة تتحرك صوب هدف واحد..

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يقدم عطاءه للإنسان أيًّا كان موقعه وانتماؤه وعرقه ولونه وطبقته..

المسلمون هم الوحيدون المنطقيون مع أنفسهم وعقيدتهم خلال تعاملهم مع الآخر.. وبخاصة أهل الكتاب.. فهم يحترمون أنبياءهم، ولا يفرقون بين أحد منهم، ويقدّرون كتبهم الدينية في أصولها غير المحرّفة أشد تقدير، ويضعونهم في منزلة فوق منازل الآخرين، ويمنحوهم الفرص المفتوحة على مصاريعها، سواء في ممارسة حقوقهم الدينية أم المدنية..

من أجل ذلك كله كان من مصلحة الإنسان في هذا العالم أن ينتصر هذا الدين، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون خيمة الخائفين والمأزومين والمضطهدين والمعذبين..

وأن يتولى زمام العالم..

ومع ذلك فالذي يحدث على أرض الواقع هو العكس تمامًا.. فما من دين حورب من قبل غير المنتمين إليه كهذا الدين.. وما من دين ضيّق عليه الخناق كهذا الدين.. وما من دين لحقه من صنوف الغدر والأذى كهذا الدين..

والأنكى من ذلك، أن شرائح كثيرة من المسلمين أنفسهم، حكامًا ومحكومين، تولت كبر هذه المهمة وأعلنت الحرب على هذا الدين، وطاردت وآذت وضيّقت الخناق على المنتمين إليه..

إنها مفارقة محزنة.. بل هي المفارقة الكبرى التي لم ولن يشهد التاريخ مثيلًا لها من قبل ومن بعد..

أن أكسر اليد التي تريد أن تمتد إليّ لكي تنتشلني من الوهدة التي أتخبط فيها.. أن أكتم الصوت الذي يسعى إلى خلاصي.. أن أدخّن على كوى النور التي توضح المسالك، وتبيّن معالم الطريق.. وأن أعتمد كل أسلوب مبرّر أو غير مبرّر لتدمير مهمة الذين يريدون أن يخرجوا بالجماعات والشعوب من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده..

من أجل ذلك وصف القرآن الكريم هؤلاء جميعًا بأنهم كالأنعام، بل هم أضلّ..

إنهم لا ينظرون إلى أبعد من مواطئ أظلافهم.. إنهم لا يعرفون ما ينفعهم مما يضرّهم.. إنهم يبحرون ضد مصالحهم.. إنهم لا يفكرون ولا يعقلون..

فلو أنهم فعلوا، لكان الحال غير الحال، ولشهد تاريخ البشرية صورة أخرى غير الصورة المعتمة التي تشكل بها.. ولعرف الجميع أن خلاصهم وأمنهم وسعادتهم ومصيرهم بهذا الدين، وأن عليهم - إذا أرادوا الخلاص الحق - أن يكفوا عن إعلان الحرب عليه، وحصاره، وتدمير أتباعه.. بل أن يهرعوا إليه ويعانقوه..

* * *
* *
*

الوجهان معًا..

يلحظ المرء كيف أنه ما من صغيرة أو كبيرة في هذا الدين إلّا وهي تحمل الوجهين معًا: البعيد والقريب.. المغيّب والمنظور.. العقدي والمنفعي.. الأخلاقي والمصلحي.. الجمالي والضروري.. وقس على ذلك سائر الثنائيات المتقابلة الأخرى على امتداد الحياة والخبرة البشرية..

خذ مثلًا تحريم الإسلام للغيبة.. إنه موقف أخلاقي.. هذه مسألة معروفة.. ولكن إذا ما حاولنا تفحّص الجانب الآخر وقعنا على المنفعة.. فكثيرًا ما يحدث وأن تمارس الغيبة ضد هذا الشخص أو ذاك، وكثيرًا ما يتسرّب إليه ما قيل عنه، وقد يفاجئ الآخرين بالحضور.. فإذا بالعلاقات تتأزم، والوشائج تتقطع، والمصالح المتبادلة يصيبها التعثر والأذى.

وقس على ذلك مفردات من مثل التجسّس، واستراق النظر إلى الجيران، والرياء، وسائر الممارسات اللا أخلاقية، والتي تقود بالضرورة إلى وجهها المنفعي، فتلحق الأذى بالطرفين معًا..

فإذا ما وسعنا المنظور أدركنا كم ينطوي عليه هذا الدين من حكمة وهو يحذّر ويكرّه وينهى ويحرّم شبكة

من الممارسات التي تنطوي على البعدين معًا، من أجل إقامة حياة سعيدة هانئة آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان.

لنضرب مثلًا آخر على تحريم الإسلام للتبرّج.. لتزيّن المرأة وتعطّرها للأجانب وهي تجتاز النوادي والأسواق والطرقات.. إن ذلك سينعكس وبكل تأكيد إثارة للفتنة ونشرًا للفساد، وإشاعة للتميّع، وإبعادًا عن الالتزام الديني.. بل إنه يمضي - على المستوى العملي - إلى ما هو أبعد من ذلك، فيدمّر السوية النفسية للشباب الذين لا يجدون فرصتهم للزواج، ويصيبهم بلعنة الإحساس الملتهب بالكبت والحرمان.

من أجل ذلك ستعاقب المرأة التي يشم عطرها في الطرقات بأنها لن تشمّ رائحة الجنة على مسافة أربعين خريفًا.. أو كما قال رسول اللّه ﷺ.

بل إن هذا الدين يوغل في تعامله مع الظواهر، في خطوطها الخلفية.. في منابعها وبداياتها الأولى.. لكي يوقفها ويستأصلها قبل أن تتسع وتتكاثر وتغدو تيارًا يصعب التصدّي له.. إنه يرفع شعار (الوقاية خير من العلاج) رغم أنه قد أعدّ العلاج ليكون جاهزًا في اللحظة المناسبة.

إننا - على سبيل المثال - نقرأ في كتاب اللّه:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ونحن نعرف جميعًا أن النظرة المتعمدة من الرجل للمرأة، ومن هذه للرجل قد تنزلق إلى ما هو أبعد، كما هو معروف في واقع الحياة، وقد تقود إلى ما لا تحمد عقباه، فيما هو معروف كذلك، وكلنا نتذكر قول الشاعر :

نــظــرة فــابــتســامــة فــســلامٌ

فــكــلام فــمــوعــد فــلــقــاءُ

وحتى لو توقفت النظرة عند حدودها السلبية التي لا تعقبها خطوة باتجاه الفعل، فإنها تلقي في نفس الناظر حزمة محرقة من التشهّي والإحساس بالحرمان، وتهيّج قوى الكبت المدمرة في أعماق نفسه..

والرجل الرجل.. والمرأة المرأة.. هما اللذان يقاومان ببطولة هذا الإغراء عند حافاته الأولى.. ولسوف يكون مردود ذلك بمستوى القدرة على الامتناع : توحدًا وطمأنينة وتحصينًا للخبرة الروحية والتعبدية من التضحل والازدواج. ولهذا حدّثنا رسول اللّه ﷺ كيف أن المسلم الذي يغض بصره يجد في نفسه - بالمقابل - حلاوة الإيمان. [رواه الحاكم والطبراني].

وكثير من المسلمين في مراحل شبابهم جرّبوا الاثنتين معًا.. وفي الحالين عرفوا كيف أن « التحذير » لم يقف عند حدوده الأخلاقية أو الدينية الصرفة، وإنما تجاوز ذلك إلى الجانب العملي الواقعي من الحياة..

إنها هندسة اللَّه - سبحانه - المحكمة، لمسيرة المسلمين في هذا العالم، وشبكة (الترافيك لايت) المدهشة للعلاقات الاجتماعية، والتي تحمي الحركة في اتجاهاتها كافة من الفوضى والتخبط والارتطام..

* * *
* *
*

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلمُؤَلِّف

أ. د. عماد الدين خليل.

- ولد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل في الموصل عام (١٩٤١م).

- حصل على شهادة البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام (١٩٦٢م).

- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدًّا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام (١٩٦٥م)، عن رسالته الموسومة (عماد الدين زنكي: ٤٨٧ - ٥٤١هـ/ ١٠٩٤ - ١١٤٦م).

- حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م)، عن أطروحته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام: ٤٦٥ - ٨١٣هـ/ ١٠٧٢ - ١٤١٠م).

- عمل مشرفًا على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام (١٩٦٧م)، وكذلك عمل معيدًا، فمدرسًا، فأستاذًا مساعدًا، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام (١٩٦٧ - ١٩٧٧م).

- وأيضًا عمل باحثًا علميًّا ومديرًا لقسم التراث، ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري في (المؤسسة العامة للآثار والتراث، المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل، للأعوام ١٩٧٧ - ١٩٨٧م).

- حصل على الأستاذية عام (١٩٨٩م)، وعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية الآداب/ جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام (١٩٨٧ - ١٩٩٢م)، ثم في كلية التربية/ جامعة الموصل (١٩٩٢ - ٢٠٠٠م)، فكلية الآداب/ جامعة الموصل حيث لا يزال يعمل هناك.

- شارك الأستاذ الدكتور في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية داخل العراق وخارجه في الوطن العربي وأوربا، وكذلك شارك في إنجاز

عدد من الأعمال العلمية لبعض المؤسسات العربية والإسلامية، وحاضر في الجامعات والمؤسسات العربية والإسلامية والعالمية، وشارك في صياغة مناهج التاريخ لعدد من الجامعات العربية والإسلامية، وله مشاركة أيضًا في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة، وقد أنجز العديد من المواد العلمية في التاريخ والحضارة والفكر والأدب للموسوعات العربية والإسلامية.

- أشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي، وكُتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية.

- وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والأندونيسية.

- أما بحوثه فقد نُشر العشرات منها في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية المحكمة.

- وأيضًا نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسةً وتنظيرًا ونقدًا وإبداعًا) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.

- وقد قُيّم كتابه (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قِبل مؤسسة أرامكس ميديا واحدًا من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

- وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واختير عضوًا في مجلس جامعة صلاح الدين في أربيل العراق للأعوام (١٩٨٩ - ١٩٩١م)، ومجلس جامعة الموصل للأعوام (٢٠٠٣ - ٢٠٠٥م) ممثلًا عن التدريسيين.

كتب للمؤلف:

أ - الأعمال التاريخية:

١ - ابن خلدون إسلاميًا، (ط٢)، المكتب الإسلامي.

٢ - الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٣ - تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام، (ط١)، دار الثقافة.

٤ – التفسير الإسلامي للتاريخ، (ط ٥)، دار العلم للملايين – بيروت.

٥ – حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي،(ط١)، دار النفائس – بيروت.

٦ – الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في أفريقيا، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

٧ – حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، (ط١)، دار الثقافة – الدوحة.

٨ – دراسات تاريخية، (ط١)، المكتب الإسلامي.

٩ – دراسة في السيرة، (ط١٧)، مؤسسة الرسالة – دار النفائس.

١٠ – دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)، (ط١)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – عمان.

١١ – عماد الدين زنكي، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٢ – في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل، (ط١)، المكتب الإسلامي – بيروت.

١٣ – مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، (ط١)، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

١٤ – المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات، (ط١)، دار الثقافة.

١٥ – المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل، ط١، مكتبة المعارف – الرياض.

١٦ – ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، (ط٨)، مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٧ – المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، (ط١)، دار القلم – بيروت.

١٨ – نور الدين محمود: الرجل والتجربة، (ط٢)، دار القلم – دمشق.

١٩ – الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، (ط١)، دار الفكر – دمشق.

ب – الأعمال الفكرية:

١ – الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢ – أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٣ – آفاق قرآنية، (ط٢)، دار العلم للملايين.

٤ – تهافت العلمانية، (ط٥)، مؤسسة الرسالة.

٥ – حوار في المعمار الكوني، (ط١)، دار الثقافة.

٦ – حول إعادة تشكيل العقل المسلم، (ط٥)، كتاب الأمة – الدوحة.

٧ – رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، (ط١)، كتاب الأمة – الدوحة.

٨ – الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي، (ط١)، منشورات فلسطين المسلمة – لندن.

٩ – العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم)، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

١٠ – في الرؤية الإسلامية، (ط١)، دار الثقافة.

١١ – قالوا في الإسلام، (ط١)، الندوة العالمية – الرياض.

١٢ – القرآن الكريم من منظور غربي، (ط١)، دار الفرقان – عمان.

١٣ – كتابات إسلامية، (ط١)، المكتب الإسلامي – مكتبة الحرمين.

١٤ – كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس)، (ط٢)، دار العلوم – الرياض.

١٥ – لعبة اليمين واليسار، (ط٥)، مؤسسة الرسالة.

١٦ – مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٧ – متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، (ط١)، دار الحكمة – لندن.

١٨ – مدخل إلى إسلامية المعرفة، (ط٣)، المعهد العالمي – فيرجينيا.

١٩ – مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢٠ – المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، (ط١)، دار الفرقان.

٢١ – مع القرآن في عالمه الرحيب، (ط٣)، دار العلم للملايين.

٢٢ – مقال في العدل الاجتماعي، (ط٤)، مؤسسة الرسالة.

جـ - الأعمال الأدبية:

١ - ابتهالات في زمن الغربة (شعر)، (ط١)، دار الوفاء - المنصورة.

٢ - الإعصار والمئذنة (رواية)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٣ - جداول الحب واليقين (شعر)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٤ - خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٥ - الرحيل إلى إسطنبول (من أدب الرحلات)، (ط١)، دار حضرموت.

٦ - ريبورتاج (حوار في الهموم الإسلامية)، (ط١)، دار الحكمة.

٧ - الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول)، (ط٢)، دار الاعتصام - القاهرة.

٨ - الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة)، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

٩ - العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)، (ط١)، دار المنارة - جدة.

١٠ - الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي (نقد)، (ط١)، دار الضياء - عمان.

١١ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٢ - في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)،(ط٤)، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٣ - في النقد التطبيقي (نقد)، (ط١)، دار البشير - عمان.

١٤ - كلمة اللّـه (قصص)، (ط١)، دار حضرموت - المكلا.

١٥ - المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول)، (ط٢)، دار الإرشاد - بيروت.

١٦ - الفن والعقيدة (دراسة)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٧ - متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٨ - محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٩ - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٢٠ - معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢١ - المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

* * *
* *
*

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

يبدو المقال الموجز ذو الصفحتين والثلاث ضروريًّا في زمن السرعة، والتكاثر والوقت المحدود.. شرط أن يتضمن المقال قدرًا من التصاميم الذهنية، ويتابع التجربة أو الخبرة بالتركيز المطلوب الذي يلمّ بأطراف المسألة بأكبر قدر ممكن من الاقتصاد في اللغة، دون إغفال لجماليتها بطبيعة الحال.

وهذا الكتاب يتضمن رصدًا لعشرات من التجارب والقيم والوقائع مما يعرض في حياتنا اليومية الراهنة، أو في ساحات السياسة والفكر والعقيدة.

ومرّة أخرى .. فإن عصر (المقالات) الطويلة، المتشابهة، البطيئة، المحمّلة بالبديع، والمحسّنات اللفظية، والمرهقة بعبء كلمات وعبارات وجمل .. لا قيمة لها إلّا أن تمنح المقال مزيدًا من التزيّن والتبهرج .. إن عصرًا كهذا قد انتهى، وإننا إذ ندلف إلى عصر جديد يتحتم أن نعيد النظر في هذا الفن التعبيري فنجعله أكثر انسجامًا مع روح العصر، ونفسه، ومتطلباته ..

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com



